دعوة المسيح

تأليف

القانوني چاك ليكلير

نقله عن الفرنسية

الأب ج. عقيقي اليسوعي

منشورات المعهد

المعادي

دعوة المسيحؑ

دعوة المسيحيّ

تأليف

القانوني جاك ليكلير

نقله عن الفرنسية

الأب ج. عقيقي اليسوعي

منشورات المعهد

المعادي

لا مانع من طبعه
الأب يوسف لويس

القاهرة فى ١٩ مارس ١٩٦٣

نصرح بالطبع
† إسطفانوس الأول
البطريرك

١٩٦٣/٣/١٩

تمهيد

تاريخ الشعب اليهودى ملىء بالمتناقضات .

فالعهد القديم تاريخ عظيم جافٍ ، تشترك فيه الفجيعة بالأنس ، ومأساة الدم والخيانة بأغانى الحب ، وجلال الرؤى الباهرة بدسائس الحريم .

فيهوه يهيمن فيه على كل شىء . يختار شعبه اختياراً حرًّا ، لا يؤدى عن اختياره حساباً ؛ ويقوده بعنف ولين ، فتسمو ، فى هذا الشعب ، الوجوه الخشنة الجليلة ، وجوه الآباء والأنبياء الذين يلبون دعوة الله ، على إسراف الدم والقبائح .

شعب خشن ، يعيش فى عصور قاسية ، بين شعوب ليست دونه غدراً وقسوة وفجوراً ، وعندما يقوده يهوه ليدلّه على ما يجب أن يصير إليه ، لا يرفق به . فهذا موسى ، منفّذ أحكام يهوه ، وهو وجه جليل ، لا يحيد عن طريق الرب ، لن يدخل أرض الميعاد ، لأنه شكّ مرّة ، فيهوه لا يتساهل مع المختارين .

عهد رهيب . ولمّا اختار يهوه شعبه كان هذا الشعب كغيره من الشعوب سريع الشهوة ، عطشاً إلى الملاذ ، يبهظه جلال الله ، ويقوده كما يلزم أن يقاد مثله . فلما نزل إلى الجبل لكى يخاطب موسى ، قصف

الرعد ، ولمع البرق ، وسمع الشعب صوت بوق عظيم . فلم يستطع أحد غير موسى أن يتقدم و يدنو من الجبل . وقال الرب : « اجعل حداً للشعب من حوالى الجبل ، وقل لهم احذروا من أن تصعدوا الجبل أو تمسّوا طرفه . فإن كل من مسّ الجبل يقتل قتلا ، لا تمسه يد بل يرجم رجماً ، أو يرمى بالسهام ، بهيمة كان أو إنساناً لا يبقى عليه . وكان الشعب كله يسمع الرعد وصوت البوق ، ويرى النار والجبل مدخناً ، وهو يرتعد » (خروج ١٩ : ١٢) .

هذا جوّ الوحى الذى نزل فى سينا : « قد امتلأ سيف الرب دماً وسمّن من الشحم ، من دم الحملان والتيوس من شحم كلى الكباش » . (أشعيا ٣٤ : ٦) .

لكن يهوه يحب شعبه : « فأى شىء يصنع للكرم ولم أصنعه لكرمى » (أشعيا ٥ : ٤) سيأتى النور والسلام . « فالشعب السالك فى الظلمة أبصر نوراً عظيما ، والجالسون فى بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم نور ، كثَّرتَ الأمّة ، وفيّرت لها الفرح ، يفرحون أمامك كالفرح فى الحصاد ، كابتهاج الذين يتقاسمون السلب » (أشعيا ٩ : ٢ — ٣) .

وإله العهد القديم إله عدل ، إله غيور ، لا يغضى على الكفر . هو سيد يفرض أحكامه فرضاً على شعب شهوانى .

بهذا بدأ ، قبل أن يسمعه نغم الحب . فإسرائيل يرتعد أمامه خوفاً ، ولا يشكو منه ظلماً ، لأن العظمة الإلهية تتعالى فوقه تعالى الجبال على

السهل؛ فهو يؤدبه صابراً عليه ، ليحوّله عن طلب الدنيويات. هو الرب لا تخفى عليه خافية : « السماوات تنطق بمجد الله ، والجلد يخبر بعمل يديه . اليوم يخبر اليوم بحمده والليل يعلم الليل» .

فالإنسان فى قبضته . إنْ عصاه شقى ، وإن أطاعه سعد . وهذه صور المختارين العظام ، على مدى التاريخ المقدس ، تنطق بإخلاص من يلبي دعوته من النفوس الرفيعة : صموئيل نذير العلى ، وقد ظل منذ طفولته ، نحو جيل ، أداة المشيئة الإلهية . وإيليا وأليشع ، رجُلا الله، تمثلت فيهما صور القداسة جميعها ؛ وسلالة الأنبياء منذرى الشعب بالقصاص ومبشريه بالخلاص ، وصور الأبرار : أيوب وطوبيا ، وأليعازر الشيخ ، وأم المكابيين . . . والوعد بالمخلص الآتى وعصره السعيد .

ولكن هذا الشعب قليل التأمل والتبحر ، مع أن تاريخه هو تاريخ حضور الله عاملاً فيه وملاحقاً له . وما تكشفت العظمة الإلهية لمثله ، ولا تحققت معرفة الإله الواحد فى شعب كما تحققت فى إسرائيل . فهو يحفظ الأمانة ، ولكنه يستصعب استساغتها ؛ ويظل غريباً عما يستولى على حكماء الشرق من الشوق إلى رؤية الله،وعما سيملأ نسّاك المسيحية من الوجد الإلهى . أما هو فإنه يخاف من الله ، يراه سيداً مخيفاً، فلا تجرّئه رأفته به على أن يرفع بصره إليه ؛ وقد بلغ به الخوف ألا يجسر أن يلفظ اسمه . فهذا أشعيا يصرخ : « ويل لى ! لقد هلكت ، لأنى إنسان دنس الشفتين ، وقد أبصرت عيناى الملك ، يهوه رب الجنود » .

ويظل يهوه يعامل شعبه ـ كما يجب أن يعامل . فقد بشّر الأنبياء بأن إسرائيل ينعم بمائدة وافرة ، إذا ظل أميناً : « وفى ذلك اليوم ، يربى واحد عجلة من البقر وشاتين . ولكثرة اللبن لا يأكل إلا الزبد » (أشعيا ٧ : ٢١ — ٢٢) .

فكل شىء فى هذا التاريخ تناقض ، حتى نشيد المجد يرافقه الأمل بخيرات الأرض : « باركى يا نفس الرب . أيها الرب إلهى ، لقد عظمت جداً ، جلالاً وبهاء لبست ، أنت الملتحف بالنور كرداء . . . الذى ينظر إلى الأرض فترتعد . يمس الجبال فتصير دخاناً . أرنم للرب مدة حياتى ، أشيد لله ما دمت ، ليلذ له نشيدى . أنا أفرح بالرب . ليفن من الأرض الخطأة ، ولا يبق فيها المنافقون » (المز ١٠٣) .

فالتمهيد لرسالة المسيح هو انتظار طويل تخالطه اختلاجات من الإيمان ومن الفطرة . وفى نهاية كل هذا ، يولد طفل : فيكون نوراً لإسرائيل ، نوراً لامعاً فى الظلام « والظلمة لم تقبله » .

وقد سكن فيما بيننا ممتلئاً نعمة وحقاً . وشاهدنا مجده ، مجداً من الآب لابنه الواحد . . . »

فما عسى أن يكون تعليم هذا المخلص المنتظر ؟

الفصل الأول

الملكوت

يسوع يبشر بالملكوت

« وبعد ما أُلقيَ يوحنا فى السجن، أتى يسوع إلى الجليل وهو يكرز بإنجيل الله ويقول : لقد تم الزمان ، واقترب ملكوت الله ؛ فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مرقس ١ : ١٤ — ١٥) .

ما الملكوت ؟

الملكوت ، فى التعليم المسيحى الحاضر ، لا يشغل محلاً كبيراً ، أما يسوع فيتكلم عنه دائماً ، وهو يقول :

« يشبه ملكوت السماوات كنزاً مخفى فى حقل ؛ وجده إنسان فخبأه . ومن فرحه به مضى وباع كل شىء له واشترى ذلك الحقل . ثم يشبه ملكوت السماوات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة . فلما وجد لؤلؤة نفيسة مضى وباع كل ما كان له واشتراها » (متى ٢٣ : ٤٤ — ٤٦) .

فملكوت السماوات أثمن ما فى العالم ؛ وهو حقيق أن يضحى فى سبيله بكل شىء . غير أن يسوع لم يهتم بتحديده . وأى فائدة فى ذلك ؟ وما يشترط لدخوله ؟ وعلامَ نأسف ، وبمَ نؤمن ؟

إن مطالعة الإنجيل تترك فى النفس شعوراً يصعب تحديده ، لأن تعليم يسوع أبعد من أن يكون درس ديانة ، وهو قلما يهتم للإجابة عما نحسبه من المسائل الجوهرية . على حين نشعر أن هذه الكتبَ الصغيرة تحتوى على كل شىء . وإن كان هذا الكل غير ما ننتظر .

يبشر يسوع بالملكوت ، ولكن يبدو لنا ما يقوله عنه غامضاً ! فالملكوت كزارع خرج ليزرع ، فأتى بعض زرعه بغلة وافرة ، وبعضه لم يأت بشىء ؛ والملكوت كإنسان زرع زرعاً جيداً فى حقله ، فجاء عدوه ليلا وبذر فى الحقل نفسه زؤاناً . والملكوت كحبة خردل وهى أصغر البذور ، نمت وكبرت حتى تفيأت فى ظلها الطير ، وهو كشبكة ألقيت فى البحر فجمعت من كل جنس من السمك . . .

كل هذا لا يقول لنا بماذا يجب أن نؤمن ، ولا ماذا يجب أن نصنع . والدين كله عندنا هو هذا . فهل يكون عند يسوع شيئاً آخر ؟

يسوع يتكلم بأمثال ، لأننا ، كما قال ، لا نستطيع أن نفهم . فهو يريد أن يعدّنا لقبول رسالته . فعليه أن يوقظ أفهامنا ويخرجنا من رقاد الأوهام القديمة ، والاهتمامات الأرضية « إن مملكتى ليست من هذا العالم ». فلم يفهم بيلاطس ، ولا أحد فهم ولا نحن أنفسنا نفهم . فالإنجيل يحيرنا كما حيَّر الآخرين ، لأنه غير ما نتوقع .

ولما ألح بيلاطس وقال : « أنت إذن ملك؟ » قال يسوع : « صدقت ، أنا ملك » ، وفسر معنى مملكته « ولدت وجئت إلى هذا العالم لأشهد للحق ،

ومن كان من الحق يسمع صوتي » .

ولكن ما معنى الحق عند بيلاطس ؟ فقال : « ما الحق ؟ » أى معنى لهذا عند رجل سياسة يطلب مركزاً أعلى ، وعند رجل مال يطلب ربحاً أكثر ؟ ما الحق ؟

أى ملك يقوم ملكه بأن يشهد للحق ؟

* * *

كان يوحنا المعمدان قد بشر بالمسيح وقال : « يأتى بعدى من هو أقوى منى . أنا لست أهلاً أن أحل سيور حذائه » . . . ثم يسجن يوحنا وتبلغ إليه بشارة يسوع ، فيبعث إليه من يسأله : هل أنت الآتى أم ننتظر آخر ؟ فقال يسوع للرسل : « امضوا فقولوا ليوحنا ما رأيتم وسمعتم : العميان يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون . وطوبى لمن لا يشك فىّ » .

فأىّ نصيب فى هذا جميعه للأصحاء وللأغنياء ؟ وأنا الغنى الطامع بالمزيد من المال ، أى شىء لى فى هذه المملكة ؟ والهيئة الاجتماعية ؟ والشيوعية ؟ والرأسمالية ؟ وما شأن المسيحية وهذا كله ؟

لا شك أن الشيوعية لم تكن فى عهد المسيح ، ولكن مسائل غيرها سياسية واجتماعية كانت منتشرة . كانت هناك علاقات اليهود بالرومان ، وكان هناك مثل ذاك الرجل الذى يأبى أخوه أن يعطيه نصيبه من ميراث أبيه ، فيقول ليسوع : « يا معلم ، قل لأخى يقاسمنى الميراث » . فيقول له

يسوع : « يا هذا ، من أقامني عليكما قاضياً ومقسما » .

ثم يلتفت إلى الشعب ويقول : « احذروا وتحفظوا من كل طمع لأن الإنسان وإن كان فى سعة ، فحياته لا تقوم على ما ملكت يده » .

وههنا صفحة لابد من مطالعتها لفهم الملكوت :

فقد ضرب لهم يسوع مثلاً : « إن إنساناً غنيًّا أغلّت له أرضه غلة وافرة . فجعل يفكر فى نفسه ، ماذا أصنع ؟ إنه ليس لى موضع أخزن فيه غلالى . ثم قال : أصنع هذا ، أهدم أهرائى وأبنى أكبر منها ، وأخزن ثمة جميع غلالى وخيراتى ، ثم أقول لنفسى ، يا نفسى ، إن لك ههنا خيرات وافرة مدخرة لسنين كثيرة ، فاستريحى وكلى واشربى وتنعمى ! فقال له الله : يا جاهل ، فى هذه الليلة تطلب منك نفسك ؛ وهذا الذى أعددته لمن يكون ! كذلك يكون أمر الذى يذخر لنفسه ولا يغنى فى سبيل الله » .

ثم يوجه يسوع كلامه إلى تلاميذه : « من أجل هذا أقول لكم ، لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ؛ تأملوا فى الغربان فإنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخزن ولا هرى ؛ والله يقوتها فلكم أنتم أفضل من الطيور !

« من منكم يستطيع ، مع الجهد ، أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ فإن كنتم لا تقدرون على ما هو أيسر ، فلم تهتمون للباقى ؟ تأملوا فى الزنابق كيف تنمو ، إنها لا تشتغل ولا تغزل ؛ وأنا أقول لكم ، إن سليمان

نفسه فى كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فإذا كان العشب الذى يوجد اليوم فى الحقل ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا فكم بالأحرى أنتم ، يا قليلى الإيمان ! فلا تطلبوا أنتم أيضاً ما تأكلون وما تشربون ولا تقلقوا ، فإن جميع هذه الأشياء تطلبها أمم العالم ؛ وأبوكم يعلم أنكم فى حاجة إليها . فاطلبوا بالحرى ملكوته ، وهذه كلها تزاد لكم » (لوقا ١٢ : ١٣ — ٣١) .

هى أمم العالم تهتم لهذه الأمور . ولأى شىء سواها نهتم نحن ؟ افتحوا جريدة مسيحية تعبّر عن أفكار المسيحيين ، فهل تتكلم عن غير هذه الأمور التى يهتم لها شعوب الأرض ؟ فالملكوت ليس هنا .

فأين هو ؟

* * *

أيقظت بشرى الملكوت ، عند اليهود ، أفكاراً مألوفة . فسأل الفريسيون يسوع : متى يأتى ملكوت الله ؟ فقال : « إن ملكوت الله لا يجىء بوجه منظور ، ولن يقال ، هو هنا أو هناك ! فها إن ملكوت الله فى داخلكم » (لوقا ١٧ : ٢٠ — ٢١) فى داخلكم ؛ ويقول البعض : فيما بينكم ، وغيرهم : فى داخلكم . والمعنيان لا شك سواء . فالملكوت هو هنا فى داخلنا ، وفيما بيننا . « والعالم لم يعرفه » وما تزال ممالك العالم كما هى . والعالم يعرفها ، ويستطيع أن يشير إليها ويحدد مكانها وتاريخها : مملكة فرعون ، وكسرى ، والإسكندر ، وقيصر ، وشرلمان ، ومعاوية بن أبى سفيان — أما مملكة

الله فهى فى موضع آخر .

كانت المملكة الرومانية ، أيام المسيح فى أوج عظمتها ، وكانت لها مشاكل اجتماعية ، مشاكل الأقاليم ، ومشاكل العبيد . ولكن يسوع كان يتجاهل ذلك جميعاً ولا يتكلم إلا عن الملكوت ، ولا يفكر فى غير الملكوت ، على أن الملكوت لا علاقة له ألبتة بممالك الأرض .

من السهل ألا يهتم الإنسان بشىء متى كان نبيًّا ، وله مريدون يضحّون فى سبيله بالروح والجسد . أما نحن فإن لم نهتم بشأننا فمن يهتم بنا ؟

فكل منا هو ذاك الإنسان الذى يريد أن يقاسمه أخوه ميراث أبيه . فنحن اليوم نتوجه إلى كنيسة المسيح كما توجه إلى المسيح ذلك الإنسان . فإذا نشبت حرب هرع الجميع إلى الكنيسة وأخذ كل فريق يطلب أن تنصره وتقول إنه على صواب .

وإذا اختلف العمال وصاحب العمل طلبوا من الكنيسة أن تتدخل بينهم : « يا هذا ، من أقامنى عليكم قاضياً ومقسما ؟ » .

* * *

بشارة الملكوت هي قبل كل شيء يسوع

وهذا ما يحير مطالع الإنجيل ، وهو يريد أن يجد فيه تفصيلا لما ينبغي أن يؤمن به ويعلمه . فالإنجيل يرسم صورة المعلم ويصفه ويعرضه في عمله . ووحي يسوع هو إعلانه نفسه وإعلامنا أنه هو ومن هو : « هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي أرسله » (لو ٦ : ٢٩) .

يسوع لا يتبع في تعليمه طريقة منظمة ، ولا يحدد شيئاً ، بل يظهر مسلّطاً على الأشياء جميعها ؛ فيشفي المرضى ، ويسكن العاصفة ويكثر الخبز ، ويتكلم بسلطان يخزي العلماء . وإذا دعا تلاميذه فهو لا يعدهم بشيء إلا أنه يشاركهم .

يقول لبطرس وأندراوس ، وهما صيادان : « اتبعاني فأجعلكما صيادي بشر » . ويمرّ بلاوي في مكتبه ويقول له : « اتبعني » ولاوي يتبعه .

فاتباعه فوق كل شيء . لكن على من يتبعه أن يكون مستعدًّا لكل شيء : « لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض السلام ، لا ، ما جئت لألقي السلام بل السيف ، جئت لأفرق الإنسان عن أبيه ، والبنت عن أمها ، والكنة عن حماتها ؛ فأعداء الإنسان أهل بيته الأقربين . فمن أحب ابنه أو بنته أكثر مني ، فلا يستحقني ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني . ومن وجد نفسه أضاعها ، ومن أضاع نفسه من

أجلى وجدها » (متى ١٠ : ٣٤ — ٣٩) .

وفى الإنجيل مواضع كثيرة تروى ما كان بين يسوع وبين الفريسيين من النزاع ، لما كان له من السلطان على الشريعة وعلى معلميها .

فكان لعطلة السبت عند اليهود أهمية بالغة ، فهى فى نظرهم من القوانين الجوهرية فى الشريعة كعطلة الأحد عند المسيحيين .

وكان يسوع ، فى سبيل عمل جيد ، يخرق السبت ويأذن لرسله بخرقه فى أمور يسيرة ، ولا يريد أن يعلق هذا الاهتمام العظيم على ما لا يستحقه : « فابن البشر هو رب السبت » (متى ١٢ : ٨) ورب أمور أخرى كثيرة غير السبت .

وكان يرى بخلافهم ، أنهم يدنسون الهيكل بالمتاجرة فيه . فيطرد الباعة منه وهو يصرخ بهم : « لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة » (يوحنا ٢ : ١٦) يتصرف تصرف سيد مطلق ، ولكنه لا يصرّح إلا تدريجيًّا بما يريد أن يفتكروا فيه .

فالفريسيون لا يقبلون تعليمه ، لأنهم يعرفون الشريعة ، ويعرفون تفسيرها ، ولا يرضون بغير التفسير التقليدى الذى يضمن لهم حفظها .

فهم ينتقصون يسوع ، ويسألونه أحياناً : من أنت ؟ كما صنع رؤساء الكهنة والشيوخ ، يوم رأوه يعلّم فى الهيكل ؛ فقالوا له : « بأى سلطان تفعل هذا ، ومن أعطاك هذا السلطان ؟ » فلم يجبهم مباشرة ، لعلمه أنهم لا يقبلون كلامه ، بل سألهم : ماذا ترون فى معمودية يوحنا ؟

ولما أبوا أن يجيبوا ، خوفاً من أن يتورطوا ، قال : « ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا » (متى ٢١ : ٢٧) .

إنه يريد أن يبين لنا من هو ، يريد أن نعرفه برؤية أفعاله وبسماع تعليمه أكثر مما نعرفه بالكلام عنه . فهو يسلك كأن العالم كله كان يعرفه ، وكأن سلطانه ليس بحاجة إلى برهان ولا دليل .

عرفه تلاميذه ، رويداً رويداً ، كما روى متى فى الفصل الثامن من إنجيله عن تسكين العاصفة : « لما ركب يسوع السفينة تبعه تلاميذه . وإذا اضطراب عظيم حدث فى البحر حتى غمرت الأمواج السفينة ؛ وكان هو نائماً . فدنا إليه تلاميذه ، وأيقظوه قائلين : يا رب ، نجنا فقد هلكنا . فقال لهم : لماذا أنتم خائفون ، يا قليلى الإيمان ؛ ثم قام وانتهر الريح والبحر . فحدث هدوء عظيم . فدهش التلاميذ وقالوا : من ترى هذا ؟ فإن الريح والبحر يطيعانه » (مرقس ٤ : ٤٠) .

كانوا ، منذ تبعوه ، قد أظهروا أنهم عرفوا فيه المسيح وآمنوا به ؛ ولكن إيمانهم به كان وما زال حتى الآن غامضاً ، فهم يؤمنون به وقد وثقوا به الثقة كلها ، غير أنهم لا يدرون بما يؤمنون .

ونجد فى الفصل السادس من إنجيل مرقس (٦ : ٤٥ — ٥١) خبر سفر آخر فى البحر . فإن يسوع بعد أن كثر الخبز ، أول مرة ، أرسل تلاميذه إلى الجانب المقابل من البحيرة ؛ وظل وحده يصلى فى الجبل . ولكن السفينة توقفت عند هبوط الليل وظلت تترجح فى الماء ولا تتقدم ، لأن الريح

كانت غليها . فلما كان الهزيع الأخير من الليل ، لحق يسوع بهم ، فرأوه يمشى على الأمواج فخافوا . فقال لهم : « لا تخافوا ، أنا هو » فقال بطرس : إن كنت أنت هو ، فدعنى آتِ إليك على المياه . فقال : ائت . فمشى بطرس على الماء ، آتياً إلى يسوع . وإذا بالريح تشتد وبالبحر يموج فيخاف بطرس ، ويغوص فى الماء فيصرخ : « يا رب نجنى » فيتناوله يسوع بيده ، وهو يلومه على ارتيابه ، ثم يصعد به إلى السفينة ، وتسكن الريح ، ويهدأ البحر ، ويعمر قلب التلاميذ بالإيمان فيقولون : « حقاً ، أنت ابن الله » .

* * *

لم تخفَ على الشعب أعمال يسوع ، فجعل يتحدث عنها . وقد ذكر القديس يوحنا ما لم يذكره الآخرون . فهو يرينا الشعب يسأل عن يسوع فى عيد المظال ، ويتجادل فيه . وإذا ما ظهر بينهم وأخذ يتكلم ، قالوا : « هذا الرجل ، كيف يعرف الكتب ولم يتعلم ؟ » (يوحنا ٧ : ١٥) فيجيبهم يسوع : « إن تعليمى ليس منى ، بل ممن أرسلنى » ثم يسألهم : « أوَليس موسى قد أعطاكم الشريعة ؟ وما من أحد فيكم يعمل بها » . ولا يزالون ما بينهم فى خصام فيه ؛ فيقول بعضهم : « أليس هذا من يطلبون قتله ؟ ها إنه يتكلم فى الجهر ولا يقولون له شيئاً . ألعلّ الرؤساء قد أيقنوا أنه المسيح ؟ » ويقول آخرون : « كلا ، إن هذا قد عرفنا من أين هو ؛ أما المسيح ، فإذا جاء ، لا يعلم أحد من أين هو » .

ويواصل يسوع خطابه فى الهيكل . والهيكل فى أورشليم كالندوة عند الأثينيين ملتقى الشعب كله : « أجل ، إنكم تعرفوننى ، وتعلمون من أين أنا ! . . . مع أنى لم آت من قبل نفسى . والذى أرسلنى حق ، وأنتم لا تعرفونه . أما أنا ، فأعرفه لأنى من لدنه ، وهو الذى أرسلنى » .

وعاد اليهود بعد حين وسألوه : « من أنت ؟ » (يو ٨ : ٢٥) وإنجيل يوحنا كله يدور حول هذا السؤال : من هو يسوع ؟

ويسوع لا يصرّح بالجواب لعلمه أن ذلك غير ضرورى . فقد أظهر من هو بما أتى من الأعمال ، وما نطق به من الأقوال . والذين يكثرون من الأسئلة فإنما هم أولئك العازمون ألا يؤمنوا به .

« من أنت ؟ » فيقول : « أنا ذلك الذى كلمتكم عنه منذ البدء » ويواصل القول : « إن لى فى شأنكم أشياء كثيرة أقولها وأحكم بها . ولكن الذى أرسلنى حق ، وما سمعته منه به أتكلم فى العالم . فلم يفهموا أنه يكلمهم عن الآب » .

ووقع عيد التجديد فى أورشليم ، وكان شتاء ، وكان يسوع يذهب ويجىء فى الهيكل ، فى رواق سليمان ، فتحلّق اليهود حوله وقالوا له : « حتامَ نريب أنفسنا . إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً » (يو ١٠ : ٢٤) .

سيتكلم هذه المرة ، وهو مقتنع بأن لا فائدة فى ذلك : « لقد قلته لكم ، ولا تصدقون ، والأعمال التى أعملها باسم أبى هى تشهد لى . غير

أنكم لا تصدقون ، لأنكم لستم من خرافى . إن خرافى تسمع صوتى ، أنا أعرفها وهى تتبعنى . وأنا أوليها حياة أبدية فلا تهلك إلى الأبد ، ولا يخطفها أحد من يدى . إن ما أعطانى أبى هو أثمن من كل شىء ، ولا أحد يستطيع أن يخطفه من يد الآب . أنا والآب واحد » (يو ١٠ : ٢٢ — ٣٠) .

عبثاً قال يسوع ما قال . فمن كانوا أهلاً لاتباعه ، فقد عرفوه من قبل ؛ وأما الباقون ، فلن يقنعهم الكلام .

وصاحوا : إنه يجدف . هو إنسان يزعم أنه إله . وجمعوا حجارة ليرجموه .

* * *

لم يكن من آمنوا بيسوع من اليهود كثيرين . وربما تصورنا أن الجموع كانوا يهتدون ، بجملة ، لسماع صوته ، كما يتوهم الكثيرون أنهم لن يقاوموه ، لو سمعوه . وهذه حجة ليعزوا فتورهم إلى عدم رؤية المخلص . أما الواقع فإن معظم من سمعوه لم يؤمنوا .

ولما كان يلمح إلى ذلك ، أمام تلاميذه ، كان يقول : « إن الحصاد كثير والفعلة قليلون ؛ فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده » . (لوقا ١٠ : ٢) ويقول فى موضع آخر : « لا تخف أيها القطيع الصغير ، لأنه قد حسن لدى أبيكم أن يعطيكم الملكوت » (لوقا ١٢ : ٣٢) ويشبه تلاميذه بالملح ، والنور : « أنتم ملح الأرض ...

أنتم نور العالم » (متّى ٥ : ١٣ – ١٤) . « ويشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال من الدقيق حتّى اختمر الجميع » (متّى ١٣ : ٣٣) ويشبه كنزاً ، ولؤلؤة . . . تدل جميع هذه التشابيه أن يسوع لا ينتظر أن يقبل الجميع رسالته . « على أن الشعب كله كانوا يستمعون إليه فى شغف » (لوقا ١٩ : ٨) ويتزاحمون لسماعه ، والإنجيل يدلّ فى مواضع مختلفة أن الجماهير كانت تزحمه وتتبعه ، ولكنهم فضوليون لا تلاميذ ، يأتون ليسمعوه ، لأنه جذاب ، يصنع عجائب ، ولا أحد يتكلم مثله .

ويقف ، قباله ، الكتبة والفريسيون الأطهار ، والكهنة ورؤساء الكهنة ، جميع هؤلاء يمثلون المجمع ، ويأبون أن يلاموا ، أو أن يعترض على تعليمهم ، أو أن يقوم أحد معلماً ، ولم يتخرّجُ عليهم ــ فحمل هؤلاء على يسوع يعارضونه معارضة عنيفة . والشعب يستمع إلى الطرفين ويقابل بين الواحد والآخر .

فى لهجة يسوع شيء من الغموض ، شيء عذب يخاطب القلب ، لا يعرف منه كل ما يريد : « من كان عطشان ، فليأت إلىّ ويشرب ، من آمن بى فستجرى من جوفه ، كما قال الكتاب ، أنهار ماء حى » . (يو ٧ : ٣٧ – ٣٨) . « تعالوا إلىّ يا جميع التعبين والمثقلين ، وأنا أريحكم. احملوا نيرى عليكم ، وكونوا لى تلاميذ ، فتجدوا الراحة لنفوسكم ،

لأنى وديع ومتواضع القلب . أجل ، إن نيرى ليّن وحملى خفيف »
(متى ١١ : ٢٨ — ٣٠) .

فما هذا الماء الذى يعطيه يسوع ؟ ومن أين تأتى الراحة ؟ إن يسوع لم يعد بإصلاح اجتماعى ، ولا بتحرير العبيد ، ولا بتوزيع الأموال على العمال ، ولا بالصحة على المرضى . لأن ليس الملكوت شيئاً منظوراً .

بم تقوم هذه السعادة التى جاء يسوع بها ، ويداه فارغتان ؟

الفصل الثانى

طوبى للنقية قلوبهم فإنهم يعاينون الله .

« طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله » (متّى ٥ : ٩) .

ما جاء يسوع بإصلاح اجتماعى ؛ ولا جاء يوطّد سلطان العدل على الأرض ؛ فإن ملكوته فى داخلنا ، وراء هذا العالم ، وبشارته موجهة إلى نفوسنا .

كان اليهود يطلبون السعادة على الأرض ؛ ونحن نطلبها مثلهم ، وننتظر من المسيح أن يبلّغنا إياها . ولكنه أتانا بما نستطيع به أن نتخلى عنها . فأكثر المسيحيين لا يقبلون تعليم يسوع خيراً من اليهود . إنهم يتبعونه بلسانهم ، ويسلّمون ببعض ما تعلمه الكنيسة ، على أن لا يزعجهم ، فلا يرضون أن تقول لهم : « طوبى لكم إذا عيروكم ، واضطهدوكم ، وافتروا عليكم بكل سوء من أجلى » (متّى ٥ : ١١) .

إن رغبة السعادة على الأرض متأصلة فى قلب الإنسان ، وتقديره الأمور بقيمها المادية فطرى فى طبعه ؛ على أن يسوع قد جاء بخيرات أخرى ؛ ولا بد من الزهد فيما فى الدنيا للدخول إلى الملكوت .

فآداب الإنجيل ، ومواعظ يسوع الأدبية ، جميعها تهيب بنا إلى

التفلت من القيود الأرضية .

بجميعها ، حتى أحق العواطف المشروعة .

تلك ، ولا شك ، أشهر النصوص التى تؤثر فى أذهان الكثيرين من الناس ، بدون أن يمارسوها .

التسامح وعدم الدفاع عن الكرامة الشخصية : « سمعتم أنه قيل ، عين بعين ، وسن بسن . أما أنا فأقول لكم ، لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فقدم له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يرافعك إلى القضاء ويأخذ ثوبك ، فخلّ له الرداء أيضاً . ومن سخّرك لميل واحد ، فامض معه ميلين . من سألك ، فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك ، فلا تحول وجهك عنه .

« وسمعتم أنه قيل ، أحبب قريبك وأبغض عدوك ، أمّا أنا فأقول لكم ، أحبوا أعداءكم ، وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات . فإنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والأثمة . فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أنفسهم يفعلون ذلك ؟ وإن لم تسلموا إلا على إخوانكم فقط ، فأى عمل خارق تصنعون ؟ أوليس الوثنيون أنفسهم يفعلون ذلك؟ فأنتم إذاً ، كونوا كاملين ، كما أن أباكم السماوى هو كامل » (متى ٥ : ٣٨ — ٤٨) .

الزهد فى الخيرات الأرضية : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث العث والصدأ يتلفان ، وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون ، بل

اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يلتف عث ولا صدأ ، وحيث لا ينقب لصوص ولا يسرقون . فإنه حيث يكون كنزك ، فهناك يكون قلبك » (متى ٦ : ١٩ — ٢١) .

« إن الثعالب لها أوجرة ، وطيور السماء لها أوكار ، أما ابن البشر فليس له موضع يسند إليه رأسه » (لو ٩ : ٥٨) .

« ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده ... حسب التلميذ أن يكون كمعلمه » (متى ١٠ : ٢٤ — ٢٥) .

وسمعه إنسان فقال له : « أتبعك يا سيدى ، لكن ائذن لى أن أودع أهلى . فقال له يسوع : من وضع يده على المحراث ونظر إلى الوراء ، فليس بأهل لملكوت الله » (لو ٩ : ٦١ — ٦٢) .

لقد مرّ القول : « من أحب أباً أو أمّاً أكثر منى فلا يستحقنى... » وهذا القول يفسر الكلام السابق .

وفى إنجيل القديس لوقا نص آخر أشد مما ذكر : « إن كان أحد يأتى إلىّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه وإخوته وإخوانه بل نفسه أيضاً ، فلا يستطيع أن يكون لى تلميذاً » (لو ١٤ : ٢٦) . ينبغى التخلّى عن كل شىء ، لاتباع يسوع ودخول الملكوت . فلا الأموال ولا العواطف البشرية بل الذات عينها : « من أراد أن يتبعنى ، فليكفر بنفسه ، وليحمل صليبه ويتبعنى . فإن من أراد أن يخلص نفسه ، يهلكها ، أمّا من يهلك نفسه من أجلى ومن أجل الإنجيل فإنه يخلصها » (مرقس

٨ : ٣٤ — ٣٥) . يعدّ هذا النص من المبادئ الأساسية ، وقد ورد سبع مرات في الأناجيل الأربعة . مع بعض الاختلاف في التعبير . . « الحق الحق أقول لكم ، إن حبة الحنطة التي تقع في الأرض ، إن لم تمت ، فإنها تبقى وحدها ، وأما إن ماتت ، فإنها تأتي بثمر كثير . من أحب نفسه فإنه يهلكها ، ومن أبغض نفسه في هذا العالم ، فإنه يحفظها للحياة الأبدية » .(يو ١٢ : ٢٤ — ٢٥) .

وإن يسوع ليخاطب نفسه بمثل ما يخاطبنا به ، وقد جعل ذاته مثلاً لنا . فلم يقف عند حث الغير على التخلّي عن كل شيء ، بل كانت حياته نفسها موعظة ، وتحقيقاً لتعليمه .

إن هذه النصوص تبدو لنا قاسية ، ويندر بين الناس من يقبلونها ، بلا شيء من الاحتجاج ، غير أننا لا نستطيع أن نغفلها ، فما هي بعبارات بدرت من يسوع ، عرضاً ، في جدال ، إنما هي جزء جوهري من تعليمه . وقد ورد الكثير منها في خطاب الجبل ، وهو خلاصة تعليم يسوع العام ، ثم تكرر ذكرها في الأناجيل جميعها . فلا سبيل إذاً إلى إغفالها أو إلى مناقشتها . فمن قبل يسوع ، يجب أن يقبلها . ولكل أن ينعم النظر فيها ، ليرى مكانتها من تعليم الرب . ولكن لا يمكن إنعام النظر فيها ، بحسب روح الإنجيل ، إلا بعد قبولها والإذعان لها ، مهما كانت النتائج .

فقد كان لهذه التعاليم الزهدية أشد تأثير في الأذهان لما فيها من مخالفة الشهوات — ومعظم الناس يعيشون في الشهوات — على أن هذه

المبادئ الأدبية ليست خاصة بالمسيحية ، فإن لها نظيراً فى آداب العالم العظمى كالصين والهند واليونان . وإنما شدد يسوع هذا التشديد لما يعرفه من قوة اصطدام الأهواء الطبيعية بها ، ولما يعرفه أيضاً من محاولة الطبع ملاشاتها . وفى وسعنا أن نؤلف تاريخاً لما بذله بعض المسيحيين ، ليخففوا أو يمسخوا ما فى تعليم يسوع من أوامر شاقة على الطبع .

على حين أن ليس الزهد سوى الخطوة الأولى فى سبيل الطهارة القلبية ، لأنه يعتق القلب من نير الأشياء الحقيرة ، ومن حب النفس خاصة . فتتفتح طهارة القلب بالزهد تفتح الزهرة على الساق . وهناك أنواع كاذبة من الزهد . وكل ما لا يؤدى أو لا يعين على التخلى عن حب الذات فهو زهد باطل . فمن يزهد فى المال والشرف ، وفى امرأته وبنيه ، ولا يبلغ إلى الزهد فى الذات فهو متعلق بنفسه أشد التعلق ؛ لأن التعلق بالنفس هو أشد تأصلاً فى الإنسان من أى تعلق سواه . ومن يتجرد من أشياء خارجة عنه ، فقد يزداد تعلقاً بنفسه ويشغل فراغ باله من الأمور الخارجية بالاهتمام بذاته فيستكبر ويتعاظم .

ليس القلب النقى الذى يعاين الله هو ذلك الشخص المهذب ، الساهر على سلوكه ، القاسى على غيره ، إنما هو ذلك القلب المقبل على كل جمال ، لأنه منقطع عن الخلائق جميعها ، ولا شىء من خيرات الدنيا يلهيه عن الخير الحقيقى ، فهو يطلب القيم الحقيقية ، فيملأ الله قلبه غبطة وسلاماً .

هل من حاجة إلى المزيد ؟ إن الأرضيين لن يفهموا أبداً . فملكوت

الله كنز مخفى ، فكيف نكشفه لمن لا يميز بين الحجر والجوهر ؟ فمن له أذنان سامعتان فليسمعْ .

* * *

« احذروا من أن تصنعوا بركم قدام الناس لكى ينظروا إليكم ؛ وإلا فلا أجر لكم عند أبيكم الذى فى السماوات .

« فمتى صنعت صدقة فلا تبوّق بها قدامك ، كما يفعل المراءون فى المجامع ، وفى الشوارع ، لكى يمجدهم الناس ؛ الحق أقول لكم : إنهم قد نالوا أجرهم . أما أنت ، فإن تصدقت ، فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك ؛ لكى تكون صدقتك فى الخفية ؛ وأبوك الذى يرى فى الخفية ، يجازيك عنها . ومتى صليتم فلا تكونوا كالمرائين ؛ فإنهم يحبون الصلاة قياماً فى المجامع وفى زوايا الساحات لكى يظهروا للناس ؛ الحق أقول لكم إنهم قد نالوا أجرهم . أما أنت فمتى صلّيت فادخل حجرتك وأوصد الباب ، وصلّ إلى أبيك الذى فى الخفية ؛ وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك .

« وفى الصلاة لا تكرروا الكلام عبثاً مثل الوثنيين ؛ فإنهم يتوهمون أنهم لكثرة الكلام يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم ، فإن أباكم يعلم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه » (متى ٦ : ١ — ٨) .

قد يلزمنا هنا أن نورد خطاب الجبل برمته وكثيراً غيره ، مما يبين لنا أن العمل الجيد حسبه أن يتم أمام نظر الله ، بلا التفات إلى الناس ولا إلى الذات .

« ومتى صمتم ، فلا تكونوا معبسين كالمرائين ، فإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين ؛ الحق أقول لكم ، إنهم قد نالوا أجرهم ، أما أنت ، فمتى صمت ، فطيب رأسك واغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائماً ، بل لأبيك الذى فى الخفية ؛ وأبوك الذى يرى فى الخفية هو الذى يجازيك » (متى ٦ : ١٦ — ١٨) .

« لا تدينوا لئلا تدانوا ، فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . ما بالك تنظر إلى القذى الذى فى عين أخيك . . . والخشبة التى فى عينك لا تنتبه لها . بل كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك ؛ وفى عينك أنت خشبة . أيها المرائى ، أخرج أولاً الخشبة من عينك ، وعندئذ تبصر كيف تخرج القذى من عين أخيك » (متى ٧ : ١ — ٥) .

* * *

العالم لن يفهم أبداً . قال يسوع : « أنا لست من العالم » (يوحنا ٨ : ٢٣) وقال لليهود : « أنتم من العالم . ولهذا ، تموتون فى خطاياكم » .

العالم كبرياء وشهوة . والمتكبر لن يفهم يسوع أبداً . لأن المتكبر لا يرى غير ذاته ، ويقدّم على الله مبادئ مدرسته وعادات عالمه .

فالصغار يفهمون . « أحمدك ، يا أبت ، رب السماء والأرض ، لأنك أخفيت ذلك عن الحكماء وأصحاب الدهاء ، وكشفته للأطفال . نعم ، يا أبت ، فإنه هكذا حسن لديك » (متى ١١ : ٢٥ — ٢٦) .

* * *

« أبوك الذى يرى فى الخفية يجازيك »

فيقول ذو الروح العالمى : وبمَ يجازينى ؟

أما ذو القلب النقى فلا يهتم . حسبه أن أباه يرى ، فأبوه يسهر عليه ، وأبوه يعلم ما يحتاج إليه .

ذو القلب النقى لا يخاف ممن يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يهلكوا النفس . إنه يسمع صوت المخلص يقول : « ألا يباع عصفوران بفلس؟ ومع ذلك لا يسقط واحد منهما على الأرض بدون إذن أبيكم ! لا تخافوا، إذن ؛ فإنكم أفضل من عصافير كثيرة . وشعر رءوسكم محصى بأجمعه .

« كل من يعترف بى قدام الناس أعترف ، أنا أيضاً به قدام أبى الذى فى السماوات . وأمّا من ينكرنى قدام الناس ، فإنى أنكره أنا أيضاً ، قدام أبى الذى فى السماوات » (متى ١٠ : ٢٨ — ٣٣) .

ما أبعدنا عن العهد القديم ، عن عرش داود ، عن الممالك والسيادات وعن المشكلة الاجتماعية . هنا الآب . وذوو القلب النقى يفهمون .

« إن شاء أحد أن يعمل مشيئة الآب ، يعرف هل هذا التعليم هو منه ، أم أنا أتكلم من عند نفسى » (يو ٧ : ١٧) .

هكذا ، يكشف يسوع نفسه للقلوب النقية ، فمن كان قلبه نقيًّا ، يطلب مشيئة الله ، ويميل إليها ، تلقائيًّا ، بلا احتياج إلى برهان ، لأن النور فيه ، يضيئه ، فيرى مشيئة الله ، ويسمع صوت يسوع ، ويحلّ فى نفسه اللطف الإلهى .

* * *

يرينا الإنجيل عدداً من القلوب النقية حول يسوع .

ولا نقصد بهؤلاء مريم العذراء القديسة ، وهي فوق جميع الخلائق ، ولا يوحنا المعمدان المختار من حشا أمه ، بل نقصد أولئك الرعاة الذين تلقوا الرسالة الأولى ، ليلة الميلاد نفسها . فجاءوا ، فوراً ، ينظرون الطفل ، « وعادوا وهم يمجدون الله ويسبحونه على جميع ما سمعوا وعاينوا » (لو ٢ ، ٢) .

فماذا عاينوا وماذا سمعوا ؟ لا شيئاً عظيما ، بل لا شيء ، طفلاً صغيراً كباقى الأطفال .

وماذا نالوا ؟ لا شيء وهم ، مع ذلك ، سعداء . مم ؟

ثم يجيء المجوس ، يجيئون من بعيد ، تلبية للنجم . وقد أتوا ليسجدوا للملك . ولهذه الكلمة ، هنا ، فى نفوسهم أكثر من فكرة ملك عادى . فإن فى الدنيا ملوكاً كثيرين لا يفكرون فى رؤيتهم .

بلغوا المنزل الوضيع فى بيت لحم ، فلم يروا ما يشبه منازل الملوك ، « وفرحوا فرحاً عظيماً » (متى ٢ : ١٠) . ثم قدموا للطفل أثمن الهدايا ، وعادوا على أعقابهم ، مسرعين : لقد عاينوه ؛ وحسبهم .

فماذا عاينوا ؟ لا شيئاً عظيما ، طفلا ، فى ظاهره ، كباقى الأطفال . كلاّ ، لقد رأوا أن هذا الطفل الصغير هو « الطفل » وفى رؤيته غنى الحياة .

لكن من يفهم هذا ممن لا همّ لهم إلا فى المال ؟

ولما بلغ يسوع الشهر ، أخذه أبواه ، فقدماه للرب فى الهيكل .

« وكان فى أورشليم رجل اسمه سمعان ؛ وكان هذا الرجل صدّيقاً تقيًّا ؛ وكان ينتظر تعزية إسرائيل ؛ والروح القدس كان عليه » . (لوقا ٢ : ٢٥) .

هو أيضاً عرف الطفل ، فأخذه على ذراعيه ، وأنشد تسبيح الفرح ، أجمل ما أملاه الإيمان على شفاه البشر : « الآن ، أيها السيد ، تطلق سبيل عبدك ، على حسب قولك (فيذهب) فى سلام ؛ لأن عينيّ قد شاهدتا خلاصك الذى أعددته ، أمام وجوه الشعوب كلها ، نوراً يضىء للأمم ، ومجداً لشعبك إسرائيل » (لوقا ٢ : ٢٢) .

رأى الطفل ، فتمّت حياته . وماذا قبل من الطفل ؟ لا شىء فى الظاهر . وقد قبل كل شىء .

وهذا شأن حنة النبية أيضاً .

فطوبى للنقية قلوبهم ، فإنهم يعاينون الله .

* * *

وقد أظهرت حياة يسوع العامة عدداً آخر من القلوب النقية :

وأولهم الرسل ، وإن يكن يسوع قد اختارهم ، فلم يأتوا إليه بأنفسهم ، وقد خيّبوه مراراً .

وزكا العشار ، فقد بُهت حين أراد يسوع أن ينزل عنده ؛ فوعد لساعته أن يعطي المساكين نصف ماله . ولماذا ؟ وما يمكن أن يعوّضه من خسارته ؟ لا شىء من المنظورات ، بدون ريب . فاسمعوه مع ذلك

يقول : « هأنذا أعطي المساكين نصف أموالى ، وإن كنت قد ظلمت أحداً ، فإنى أردّ أربعة أضعاف » .

فقال له يسوع : «اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت؛ فإنه هو أيضاً ابن لإبرهيم » (لوقا ١٩ : ١ — ١٠) .

ولا يخفى أن اليهود كانوا يكرهون العشارين ، جباة الضرائب للرومان ، ويحتقرونهم ، وينكرون عليهم خدمة محتلّى البلاد .

وهناك قائد المئة ، وهو أجنبي وثنى ، شفى يسوع غلامه . لقد أظهر إيماناً حيًّا جعل يسوع يقول : « الحق أقول لكم ، إنى لم أجد مثل هذا الإيمان فى إسرائيل » . ثم يردف قائلاً : «.ولهذا أقول لكم إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبرهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السماوات ؛ وأما بنو الملكوت فيلقون فى الظلمة الخارجية ؛ هناك يكون البكاء وصريف الأسنان » (متى ٨ : ٥ — ١٣) .

هل يكفى الإنسان أن يكون صحيح الإيمان حتى يستحق أن يحصى بين أنقياء القلوب . وهل ذاك من السهولة بحيث تظن ؟

إليكم المرأة الخاطئة ، فإنها امرأة سيئة السيرة فى المدينة . يحضر يسوع للعشاء عند سمعان الفريسى ، وهو أحد وجوه قومه . فتدخل تلك المرأة ، حاملة وعاء طيب ، فتجثو من وراء يسوع ، وهو متكئ فى بيت الفريسى. فتبكى وتغسل بدموعها وطيبها قدمى المخلص ، وتمسحهما بشعر رأسها ، وتقبلهما . وإذا بها تسمع يسوع يقول لها : مغفورة لك خطاياك . امضى ،

لا تعودى تخطائين » (لو ٧ : ٣٦ — ٥٠) .

وإليكم اللص الطيب ، فهو خاطئ مشهور . يعرف يسوع ، وهو مصلوب معه ؛ فيحاول أن يسكت زميله اللص الآخر المصلوب معهما عن شتم يسوع فيقول له : « أفلا تخشى الله وأنت مشترك فى الحكم نفسه ؟ أما نحن فبعدل ، إننا نعاقب مما قدمت أيدينا ، أما هو فلم يفعل شيئاً من السوء » . وأضاف قائلاً : « يا سيدى ، اذكرنى ، متى أتيت فى ملكوتك » .

هوذا فعل إيمان صريح كإيمان سمعان ، أحدهما فى البداية والآخر فى النهاية .

كان يسوع حين خاطبه اللص كأنه قد وهى وتلاشى من طول ما احتمل من السبّ والتحقير ،طوال الليل وطول الصباح . فهو دامٍ ، مشوّه ، مشرف على الموت ، وقد تركه الجميع ؛ فأمسى وكأن ليس عليه شىء من العظمة الإلهية .

أمّا اللص ، وإن لم يكن بالعابد ولا بالزاهد، فقد رأى ، فقال : « يا يسوع ، اذكرنى ، متى جئت فى ملكوتك » .

فقال له يسوع : «الحق أقول لك : إنك اليوم تكون معى فى الملكوت» .

* * *

« طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله » .

لقد رأينا الرعاة المتواضعين ، والمجوس العلماء المشرّفين ، وسمعان

وحنة ما بين الأنبياء ، ورأينا عشاراً ، وجندياً ، وزانية ، ولصاً جميعهم قبلهم يسوع بين أنقياء القلوب .

ولم يوجب على العشّار والقائد أن يتركا عملهما ، ولا لمّح فى الإنجيل إلى مهنة ، ولا إلى مسألة اجتماعية ، بل كلما كانوا يحاولون استدراجه إلى تلك الشؤون ، كان يتوارى ، كما جرى للفرّيسى إذ سأله : هل ندفع الجزية لقيصر؟

ولكن أما إن هذا كله بعيد عما رأينا فيما تقدم من الموجبات الرهيبة . أن النصوص تشهد .

الفصل الثالث

حُبّ الآب

« أبوك الذى يرى فى الخفية يجازيك » . . .

إن رسالة الابن هى التبشير بالآب : التبشير بأن الله آب . تلك النقطة الأولى من بشارة الإنجيل ؛ والباقى مؤسّس جميعه عليها . تلك هى الحقيقة الأولى التى تتميز بها المسيحية عن سواها من الديانات الأخرى جميعها ، لأننا وحدنا نعرف أن الله آب .

لنتذكر كلام أشعيا : « ويل لى ! لقد هلكت . . . إن عينىّ قد أبصرتا الملك ، يهوه رب الجنود » .

فما عاد الله يهوه رب الجنود . بل إنه أبونا ، وإنه يحبنا حبًّا يفوق الوصف : « لقد أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الواحد ، لكيلا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية فإن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ، ليدين العالم ، بل ليخلص به العالم » (يوحنا ٣ : ١٦ — ١٧) .

فنزول الابن بيننا شهادة على حب الآب لنا : « فابن البشر لم يأت ليُخدم بل ليَخدم ، ويبذل نفسه فدية عن كثيرين » (متى ٢٠ : ٢٨) .

وسر التجسد والفداء ، والمسيحية كلها ، متأصلة فى الأبوة الإلهية .

* * *

حب الآب ومثل الابن الشاطر :

لقد أساء هذا الابن الأدب نحو أبيه ، حين طلب منه نصيبه من الميراث .

وبعد أيام غير كثيرة جمع كل شيء له وسافر إلى بلد بعيد ، وبذّر ماله هناك ، عائشاً فى الخلاعة ، فلما أنفق كل شيء له ، حدثت فى ذلك البلد مجاعة شديدة فأخذ فى العوز . . . حينئذ فكر فى نفسه وقال : كم لأبى من العبيد يفضل عنهم الخبز وأنا ههنا أهلك جوعاً . أقوم وأمضى إلى أبى . . . فقام وجاء إلى أبيه وفيما هو بعيد رآه أبوه وتحنّن عليه وأسرع وألقى بنفسه على عنقه وقبله » . . . ولم ينتظر حتى يعتذر له .

هكذا عامل يسوع المخلع إذ قال له : « مغفورة لك خطاياك » قبل أن يظهر توبته عنها (متى ٩ : ٢) .

قال الابن : «يا أبت لقد أخطأت إلى السماء وأمامك ولست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابنا » . . . لكن الأب لم يدعه يتمم كلامه ، ونادى عبيده وقال لهم : « هاتوا الحلّة الأولى وألبسوه ، واجعلوا فى يده خاتماً ، وفى رجليه حذاء ، وأتوا بالعجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونفرح ، لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد » .

هوذا حب الآب .

بمثل هذا ظهر يسوع بعد قيامته لمن تركوه من رسله ، ولم يعاتبهم ، بل قال لهم : « السلام معكم ، أنا هو ، لا تخافوا » .

لا تخافوا » ليس علينا أن نخاف ألبتة من أبينا السماوى ، مهما كان ضعفنا . فإن حبه يفوق كل حب .

ولما سمع أخو الابن الشاطر الأكبر أصوات الغناء والرقص ، غضب وأبى أن يدخل ، فخرج أبوه وطفق يتودّد إليه فقال لأبيه : « كم لى من السنين أخدمك ، ولم أتعدّ وصيتك قط ، وأنت لم تعطنى جدياً أتنعم به مع أصدقائى . ولما جاء ابنك هذا الذى بدّد مالك مع الزوانى ، ذبحت له العجل المسمّن . فقال له أبوه : يا ابنى ، أنت معى كل حين ، وكل ما هو لى فهو لك ، ولكن كان ينبغى أن نتنعم ونفرح ، لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد » .

ولكن البكر لم يرض . ونحن نرانا معه قلبيًّا . وهذه حال الكنيسة ، فكلما ابتهجت بعودة ضالّ ، لمناها فى سرّنا ، لأن الطيبين يطالبون بتكريم الفضيلة ، وينسون : « أبوك الذى يرى فى الخفية . . . يجازيك » نعم ، هذا لا يكفينا . ينبغى أن يكرمونا على الأرض . نريد أن نكون صالحين ، ولكن يجب أن نحرص على كرامتنا . . .

« أى إنسان منكم له مائة خروف فأضاع واحداً منها ، لا يترك التسعة والتسعين الأخرى فى البرية ، ويمضى فى طلب الضال حتّى يجده ؟ وإذا ما وجده يحمله على منكبيه فرحاً ، ويعود إلى بيته ويدعو الأصدقاء

والجيران ، ويقول لهم : افرحوا معي ، فإني قد وجدت خروفي الضال . فأقول لكم ، هكذا في السماء، يكون فرح بخاطئ يتوب أكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدّيقاً لا يحتاجون إلى توبة » (لوقا ١٥ : ٤ — ٧) .

إذا كنا نعتقد أننا صدّيقون ، لا نحبّ مثل هذا الخطاب .

لكن يسوع يريد رحمة لا ذبيحة .

فبينما كان متكئاً في بيت متى ، أقبل كثيرون من العشارين والخطأة واتكأوا معه ومع تلاميذه . فلما رأى الفريسيون ذلك ، قالوا لتلاميذه : « لمَ معلمكم يأكل مع العشارين والخطأة ؟ » فسمع ، فقال لهم : « الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب ، بل الذين ساءت حالهم ؛ فاذهبوا إذن ، وتعلموا ما معنى هذا القول : أريد الرحمة لا الذبيحة ؛ فإني لم آتِ لأدعو الصديقين بل الخطأة » (متى ٩ : ١٠ — ١٣) .

* * *

إن يسوع يبدي شدة مقته لمن يغيّرون مبادئ الحب . على أن ليس هناك إلا حبّان : حب الله وحب البشر . وكلاهما يؤولان إلى واحد ، وفيهما الشريعة كلها .

ومن أسباب الخصومة ما بين يسوع والفريسيين احتقاره بعض تقاليدهم : « لماذا لا يغسل التلاميذ أيديهم قبل تناول الطعام ؟ » فيقول لهم : « ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم . فمن القلب تخرج الأفكار الشريرة ، والقتل والزنى ، والفسق ، والسرقة ، وشهادة

الزور ، والتجديف . وذلك هو ما ينجس الإنسان ؛ وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الإنسان » (متى ١٥ : ١ — ٢٠) .

« ويل لكم ، أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تؤدون العشر من النعناع والشبث والكمون (المسيحيون الذين يصومون السبت ولا يذهبون إلى حضور القداس يوم الأحد) وقد أهملتم أثقل ما فى الشريعة : العدل ، والرحمة ، والأمانة . فكان عليكم أن تعملوا بهذه ، من غير أن تهملوا تلك . ياللقادة العميان الذين يصفّون من البعوضة ويبلعون الجمل!

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، فإنكم تطهرون خارج الكأس والصحفة وهما من الداخل مترعان سلباً وجشعاً . إنكم تشبهون القبور المكلّسة . إنها تبدو من الخارج جميلة ، وهى من الداخل مليئة بعظام أموات وكل نجاسة ، كذلك أنتم أيضاً . فخارجكم يوهم الناس أنكم صديقون ، وأما الداخل فمفعم رياءً وإثماً » (متى ٢٣ : ٢٣ — ٢٨) .

« وأنتم أيضاً يا علماء الشريعة ، ويل لكم ، لأنكم تحمّلون الناس أحمالاً شاقة الحمل ، فى حين أنكم لا تمسونها بإحدى أصابعكم » (لو ١١ : ٤٦) .

* * *

« إن نيرى طيب وحملى خفيف . . . ويل لكم ، أنتم الذين تحملون الناس أحمالاً ثقيلة . . . من لا يبغض أباه وأمه . . . اليوم تكون معى

فى الملكوت . . . أريد الرحمة لا الذبيحة . . . جاء ابن البشر لا ليدين بل ليخلص . . . من يرد أن يخلص نفسه فليهلكها . . . »

كيف نوفّق بين هذه الشدة كلها وبين هذه الرحمة كلها ؟

* * *

« أنا الراعى الصالح . الراعى الصالح يبذل نفسه عن خرافه » (يو ١٠ : ١١) .

« ما من حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه » (يو ١٥ ، ١٣) .

« لا تضطرب قلوبكم . آمنوا بالله ، وآمنوا بى أيضاً، إن فى بيت أبى منازل كثيرة ؛ وإلا لكنت قلت لكم . إنى أنطلق لأعدّ لكم مكاناً ، وإذا ما انطلقت وأعددت لكم مكاناً ، أرجع وآخذكم إلىّ ، لتكونوا أنتم أيضاً حيث أكون أنا . وأنتم تعرفون الطريق إلى حيث أذهب » (يو ١٤ : ١ — ٤) .

قال يسوع هذه الأقوال عشيّة آلامه . وكان الرسل لا يزالون مفتونين بسحر لفظه . فقال توما : « إنا لا نعلم ، يا رب ، إلى أين نمضى ، فكيف نعرف الطريق ؟ » .

فقال يسوع « أنا الطريق والحق والحياة . . . كل ما تسألون الآب باسمى فأنا أفعله ليمجد الآب فى الابن . . . من يحبنى يحفظ كلمتى ، وأبى يحبه وإليه نأتى وعنده نجعل مقامنا . . . أنا الكرمة الحقيقية وأنتم

الأغصان ؛ من يثبت فيّ وأنا فيه يأتِ بثمر كثير ، لأنكم بدونى لا تستطيعون أن تعملوا شيئاً . . . إن ثبتم فيّ وثبت كلامى فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم . بهذا يتمجد أبى أن تأتوا بثمر كثير وتكونوا لى تلاميذ .

« كما أحبنى الآب كذلك أنا أحببتكم ، اثبتوا فى محبتى ؛ إن حفظتم وصاياى ثبتم فى محبتى ، كما أنى حفظت وصايا أبى وأنا ثابت فى محبته . كلمتكم بهذا ليكون فرحى فيكم ويتمّ فرحكم » (يو : ١٥) .

هذا الخطاب بعد العشاء الأخير هو الحديث الرفيع الذى دفق فيه يسوع كل غنى قلبه ، وهو تتمة خطاب الجبل الوارد فى أوائل إنجيل متى . فخطاب الجبل موجَّه إلى الجموع ، وخطاب بعد العشاء موجه إلى الرسل وحدهم . خطاب الجبل مدخل الملكوت وخطاب بعد العشاء هو التعبير عن أقصى ما فى فكر يسوع .

إن معظم الناس لا يتجاوز فهمهم للإنجيل خطاب الجبل ؛ يظنونه أدب الإنجيل كله ، ولا معرفة لهم بخطاب بعد العشاء أو أنهم لا يفهمونه . أمّا أبناء الملكوت فيعرفون أن سرّ الملكوت فى خطاب بعد العشاء .

« أيها الآب ، لقد أتت الساعة ، فمجّد ابنك لكى يمجدك ابنك ، ويعطى — وقد قلّدته السلطان على كل بشر — الحياة الأبدية لجميع الذين أعطيتهم له . والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى الواحد ، والذى أرسلته يسوع المسيح . . .

« أيها الآب القدوس ، احفظ باسمك من أعطيتهم لى ليكونوا واحداً مثلما نحن واحد ... لست لأجلهم فقط أصلى بل لأجل الذين يؤمنون بى عن كلامهم أيضاً ، لكى يكونوا بأجمعهم واحداً ؛ فكما أنك أنت ، أيها الآب ، فىّ وأنا فيك ، فليكونوا هم أيضاً ، فينا ، حتى يؤمن العالم أنك أنت أرسلتنى .

« لقد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى لكى يكونوا واحداً كما نحن واحد . أنا فيهم وأنت فىّ لكى يكونوا مكملين فى الوحدة ويعلم العالم أنك أنت أرسلتنى ، وأنك أحببتهم كما أحببتنى ..

« أيها الآب ، إن الذين أعطيتنى ، أريد أن يكونوا هم أيضاً حيث أكون أنا ، لكى يشاهدوا المجد الذى أعطيتنى ، لأنك أحببتنى ، قبل إنشاء العالم . أيها الآب العادل ، إن كان العالم لم يعرفك ، فأنا قد عرفتك ، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتنى . لقد عرفتهم اسمك ، وسأعرفهم أيضاً ، لتكون فيهم المحبة التى أحببتنى ، وأكون أنا فيهم » (يو ١٧).

* * *

هوذا سر الملكوت ، هو الحياة الأبدية ، والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت وحدك الإله الحقيقى ، والذى أرسلته يسوع المسيح ، وأن لا يكون أبناء الملكوت إلاّ واحداً مثلنا — فليكونوا فينا . فليكونوا معى حيث أكون — ولتكن فيهم المحبة التى أحببتنى .

قريباً يبدأ مجد يسوع بالصليب . ونحن معه واحد .

« أيها الآب العادل ، إن العالم لم يعرفك » . أبناء الملكوت وحدهم يسمعون هذا الكلام .

* * *

« محبة الآب » لتكن فيهم المحبة التى أحببتنى .

« كما أحبنى أبى ، أحببتكم . اثبتوا فى محبتى » .

ما هو حب يسوع فينا ؟

« يا أولادى ، أنا معكم بعد زمناً يسيراً . . . فإنى أعطيكم وصية جديدة أن يحب بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا . بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى . الوصية التى أستودعكم هى أن يحب بعضكم بعضاً » .

هنا ، بلغنا الغاية . فبشارة الملكوت هى أن الله أبونا ، وأنه يحبنا ، وأن ابنه قد أتانا ضامناً لنا محبته، وأننا واحد فى حب يسوع مع الآب، ومع يسوع وفيما بيننا ؛ وحب الآب هذا هو من الغزارة بحيث يعوّض عن كل ما فينا من الضعف ، بشرط أن نستسلم له .

أمّا القلوب القاسية فلن تدرك ذلك أبداً . لأن كل من يركّز كماله فى ذاته لا يتفتح قلبه للحب .

* * *

يأتينا يسوع بعطية الحب الفائقة ، وهذا الحب الإلهى ينحنى على نفوسنا ليستولى فيها على أدق حركة صالحة فى إرادتنا . « لو كنتِ تعرفين عطية الله ! » (يو ٤ : ١٠) لكن الإنسان لا يعرفها ، والله ساهر

ينتظرنا ، كأبى الابن الشاطر ، حتى يستولى على كل ما يمكن أن يكون فينا صالحاً للملكوت « من سقى أحد هؤلاء الصغار ، على أنه تلميذ لى ، كأس ماء بارد فقط ، فالحق أقول لكم إن أجره لن يضيع » (متى ١٠ : ٤٢) .

ثم يصف الدينونة فيقول : « حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه ، تعالوا ، يا مباركى أبى ، رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم ، لأنى جعت فأطعمتمونى ، وعطشت فسقيتمونى ؛ كنت غريباً فأويتمونى ، وعرياناً فكسوتمونى ، وكنت مريضاً فعدتمونى ، ومحبوساً فأتيتم إلىّ » .

فيجيبه الصديقون قائلين : « يا رب ، متى عملنا هذا كلّه ؟ »

« فيقول الملك : الحق أقول لكم ، إن كل ما صنعتموه إلى واحد من إخوتى هؤلاء ، إلى واحد من الأصاغر فإلىّ قد صنعتموه » (متى ١٥ : ٣٤ — ٤٠) .

لا حاجة أن نعرف ما نصنع . فكل حركة صالحة تؤدّى إلى الحياة الأبدية .

بل يذهب الحب إلى أبعد من ذلك ؛ فهو يحنو على البائسين جميعاً ويضمهم إليه ، على أن لا يكونوا من الثائرين الغاضبين . فلم يذكر فى مثل الغنى ولعازر المسكين أن لعازر كان قديساً بل إنه كان فقيراً جداً ، فكان هذا كافياً لكى تنقله الملائكة عند موته إلى السماء (لو ١٦ : ٢٢) مع أن الوصايا القاسية الآمرة بالزهد والتخلى عن الدنيا لا تزال باقية .

فكأن هناك طريقين ، طريق التخلي والزهد لمن يلبون الدعوة ، وطريق الرحمة لكل من عندهم رغائب صالحة أو هم صابرون على بؤسهم فى هذه الحياة .

وليس يطرد من الملكوت إلا الذين يقاومون النعمة ويحسبون أنفسهم أحكم من الله ، فيؤثرون رأيهم على دعوته . هؤلاء هم المتكبرون الغلاظ الأكباد .

هذا ما نستخلصه من كلام القديس لوقا (١٤ : ١٢ — ٢٧) .

« إذا صنعت غداء أو عشاء ، فلا تدعُ أخلاءك ، ولا إخوانك ، ولا أقرانك ، ولا الجيران الأغنياء ، مخافة أن يدعوك هم أيضاً فتقوم بذلك مكافأتك . ولكن ادعُ ، إذا ما صنعت مأدبة ، المساكين ، والجُدع ، والعرج ، والعميان ، فتكون عندئذ سعيداً ، إذ ليس لهم ما يكافئونك به ، وتكون مكافأتك فى قيامة الصدّيقين .

« وإذ سمع أحد المتكئين ذلك ، قال طوبى لمن له نصيب فى وليمة ملكوت الله ! فقال له يسوع : « إنسان أقام عشاء عظيما ودعا إليه كثيرين. وفى ساعة العشاء أرسل غلامه يقول للمدعوين ، هلمّوا ؛ إن كل شيء معدّ ، فطفقوا بجميعهم يعتذرون على نمط واحد ، فقال له الأول : قد اشتريت أرضاً ولا بد لى أن أذهب فأراها ؛ فأرجو أن تعذرنى ، وقال الآخر : قد اشتريت خمسة فدادين بقر ؛ وهأناذا ماض لأجربها ؛ فأرجوك أن تعذرنى . وقال الآخر : قد تزوجت امرأة ، ومن ثم فلا أقدر أن أجيء .

فرجع الغلام وأخبر سيده بذلك ، فغضب رب البيت ، وقال لغلامه : اخرج سريعاً إلى الساحات وشوارع المدينة ، وأت إلى هنا بالمساكين والجدع والعميان والعرج . وقال الغلام : يا سيدى ، قد قضى ما أمرت به ، وبقى موضع . فقال السيد للغلام ، اخرج إلى الطرق وما حول السياجات واضطرّ الناس إلى الدخول حتى يمتلئ بيتى . فإنى أقول لكم ، إنه لن يذوق عشائى أحد من أولئك المدعوين » .

ها هم أولاء الذين يرفضون النعمة ، وها هي ذى عطية الحب للمساكين .

« وكان جموع كثيرون يواكبونه ؛ فالتفت وقال لهم : إن كان أحد يأتى إلىّ ولا يبغض أباه ، وأمه ، وامرأته ، وبنيه ، وإخوته ، وأخواته بل نفسه أيضاً ، فلا يستطيع أن يكون لى تلميذاً . ومن لا يحمل صليبه ويتبعنى ، فلا يستطيع أن يكون لى تلميذاً » .

« أيها الآب القدوس ، ليكونوا واحداً فينا » .

إن الحب الذى يدعونا هو من الغنى بحيث تتوارى أمامه جميع القيم البشرية ، حتى ما فينا من الرغبة الطبيعية فى خيرنا . ولكن لا بد لتذوّق هذا الحب ، وللحصول على نصيب فى الملكوت ، من الزهد فى الدنيا ولابدّ أن يكون هذا الزهد كليًّا كزهد بنى الملكوت .

هذا الكلام موجه إلى من يلبون الدعوة « من يريد أن يكون لى تلميذاً » أمّا جموع البائسين من المرضى ، والعجز ، والعميان ، والخاعين ، فهؤلاء ليس لهم من حرّية الفكر ما يؤهلهم للاختيار . فيحنو عليهم حب الآب

ويضمّهم إليه، على أن يحتملوا عذابهم وهم صابرون متواضعون . فالآب يحبهم ويحبنا ويحبنا جميعاً . وقد أرسل ابنه لا ليدين العالم بل ليخلص العالم . فجميع المساكين يدخلون ملكوت النعيم ، ونحن أيضاً ما لم نقاوم النعمة .

ولا يبقى خارجاً إلا من يحسبون أنهم عقلاء ويعتمدون على قوتهم ، ويعجبون بأنفسهم .

الفصل الرابع

المسيحى أمام العالم

« السلام أستودعكم ، سلامى أعطيكم ؛ لست أعطيكموه كما يعطيه العالم ، لا تضطرب قلوبكم ولا ترتعد . . لئن كان العالم أبغضكم ، فاعلموا أنه قد أبغضنى قبلكم . فلو كنتم من العالم ، لكان العالم يحب ما هو له ولكن لأنكم لستم من العالم ، ولأنى باختيارى لكم قد أخرجتكم من العالم ، لأجل ذلك يبغضكم العالم . . قد حدثتكم بهذا ، ليكون لكم فى السلام . ففى العالم ستكونون فى شدة، ولكن ، لتطب نفوسكم . إنى قد غلبت العالم » (يو ١٤ : ٢٧ و ١٥ : ١٨ — ١٩ و ١٦ : ٣٣).

لن يبرح يسوع ، مدى حياته العامة يعارض العالم ، حتى ليدعو الشيطان رئيس هذا العالم (يوحنا ١٢ : ٣١) . العالم هذا المجموع المتجمد فى أحكامه ، المتشبع من أوهامه ، المطمئن إلى حكمته . فيسوع يقاوم العالم ويقدّم عليه تلاميذه .

ويعدّهم لاحتمال الاضطهاد : « ليس التلميذ أفضل من المعلم » . (متى ١٠ : ٢٤) ، «فإن كانوا قد اضطهدونى ، فسيضطهدونكم أيضاً » (يو ١٥ : ٢٠) » لكن لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولا يستطيعون

أن يقتلوا النفس » (متى ١٠ : ٢٨) .

« هأنذا مرسلكم مثل خراف بين ذئاب ؛ فكونوا حكماء كالحيات ، وودعاء كالحمام . احذروا من الناس فإنهم سيسلمونكم إلى المحافل وفى مجامعهم يجلدونكم . . . وسيسلم الأخ أخاه للموت والأب ابنه ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من الكل من أجل اسمى » (متى ١٠ : ١٦ ــ ١٧ و ٢١ ــ ٢٢) .

يسوع ينذر تلاميذه بحياة مثل حياته مفجعة . « فليس التلميذ أفضل من المعلم » . وإذا كان المعلم قد تألم، فلا مهرب للتلميذ من الآلام ، على أنه مضمون الفوز والانتصار .. . لا تخافوهم ؛ « فمن اعترف بى قدام الناس ، أعترف به قدام أبى الذى فى السماوات » (متى ١٠ : ٢٦ ــ٣٢) ثقوا ، أنا غلبت العالم ؛ وحيثما أكن ، تكونوا .» .

فهو يجعل بينه وبين العالم خلافاً جذريًّا ؛ وإن لم يمرّ جميع التلاميذ بما أنذرهم به من الأطوار المفجعة . ولكن هذه الأحداث ستحدث ــ وقد حدثت ، وهى تحدث أيضاً . وعلى كل حال ، فالعالم يعارض يسوع ، ويسوع يعارض العالم .

* * *

لم يفهم الرسل، أول أمرهم ، شيئاً عظيماً ، فهم يتبغون، موزّعين بين الدهشة والثقة ، ما يعتريهم من الشك ، بسبب أقوال اليهود ، وانتظارهم مملكة أرضية .

ولكنهم ، لما أخذوا يفكرون بعد موته ، ولما قبلوا الروح القدس ، استنار عقلهم وتحوّل جبنهم وترددهم إلى يقين بمعزل عن الشك .

فأصبحوا يدركون أن عندهم حكمة تنهار عندها كل حكمة بشرية .

وها هوذا بولس يقول : « إذا كان الله لنا فمن علينا ؟ هو الذى لم يشفق على ابنه الخاص ، بل أسلمه عنا جميعاً ، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شىء . . . فالمسيح الذى مات ، بل بالحرى قام ، وهو عن يمين الله ، يشفع فينا .

« فمن يفصلنا عن محبة المسيح ؟ أشدّة ؟ أم ضيق ؟ أم جوع ؟ أم عرى ؟ أم خطر؟ أم اضطهاد ؟ أم سيف ؟ . . . غير أنا فى هذه كلها نغلب بالذى أحبنا . فإنى لواثق بأنه لا موت ولا حياة ، ولا ملائكة ولا رياسات ، لا حاضر ولا مستقبل ولا قوّات ، لا علوّ ولا عمق ، ولا خليقة أخرى أية كانت ، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا » (راجع رومية ٨: ٣٥ — ٣٩) .

هوذا الجواب إلى الإنجيل . وثمّ نص آخر مشهور يبيّن ، بلهجة قاهرة وجرأة مثيرة ، هذا الخلاف ما بين المسيحى والعالم : « إن المسيح أرسلنى لأبشرّ بالإنجيل ، ولكن ، لا بحكمة الكلام ، لئلا يُبطَل صليب المسيح . فإن كلام الصليب عند الهالكين جهالة . وأمّا عندنا نحن المخلَّصين ، فقدرة الله . لأنه قد كتب "سأبيد حكمة الحكماء ، وأرذل فهم الفهماء" (أشعيا ٢٩ : ١٤) فأين الحكيم ؟ أين المثقف ؟ أين

محجاج هذا الدهر؟ أوَلم يجهّل الله حكمة هذا العالم ؟ فإذ أن العالم ، بحكمته ، لم يعرف الله فى حكمة الله ، حسُن لدى الله أن يخلص المؤمنين، بجهالة الكرازة . وفيما اليهود يسألون آيات ، واليونانيون يطلبون حكمة ، نكرز نحن ، بمسيح مصلوب ، عثرةٍ لليهود وجهالة للأمم؛ أما للمدعوّين، يهوداً ويونانيين فهو مسيح ، قدرة الله وحكمة الله . لأن ما هو جهالة عند الله أحكم من الناس ، وما هو ضعف عند الله أقوى من الناس» (١ كور ١ : ١٧ — ٢٥) .

تلك حماسة المسيحيين الأولين المدهشة . إذ اكتشف الإنسان أنه ابن الله . « فإن جميع الذين يقتادهم روح الله هم أبناء الله ». ذلك شعور حميم بالبنوّة المعبودة . « لم تأخذوا روح العبودية ، بل أخذتم روح التبنّى الذى يشهد مع روحنا بأنا أولاد الله » .

أولاد ، فإذن ورثة أيضاً ؛ ورثة الله ، ووارثون مع المسيح ، إن كنا نتألم معه » (روما ٨ : ١٤ — ١٨) .

وصورة العذاب لم تكن لتوهن الرسول ، فيواصل قوله : « وإنى لأحسب أنّ آلام هذا الدهر الحاضر لا يمكن أن تقابل بالمجد المزمع أن يتجلى لنا » .

فالمسيحى ، بكونه ابن الله ووارثاً مع المسيح ، يستطيع أن يقتحم العالم ويتابع فيه طريقه الخاص . وما من سعادة تدانى سعادته ، فأمجاد العالم جميعها كالظلال إزاء المجد الذى يحمله فى ذاته .

الفصل الخامس

من أراد أن يكون لى تلميذاً..

لقد تبدلت الحياة ، وتغيّر كل شيء ، على حين لم يتغيّر شيء .

قد تغيّر كل شيء ، لأن معنى الحياة لم يبق كما كان . فقد تخلل الحياة حب الآب وحوّلها من حال إلى حال . كالمنظر الطبيعي ، وإن بدا ،تحت المطر ، وفى الظلام، ما هو تحت الشمس فشتان ما بين المشهدين .

ومن لم يختبر فى حياته ، وقد وصل ليلاً إلى بلد غريب ، أنه رأى فى الظلام أشباحاً لم يميزها ؛ وعندما طلع النهار وأشرقت الشمس ، وعاود النظر إليها ، رأى رياضاً نضرة ، ورأى جبالاً وأنهاراً بهجة للعيون ؟!

فمن استمع إلى يسوع وتنبّه للحياة الإلهية ، كان نظير هذا المسافر ، يبدو له العالم جديداً ، ويسمع كل شيء يحدّثه عن حب الله : الطبيعة ، والبشر ، وروحه وأعصابه ، وكل شيء يفتنه ، لأن كل شيء يعرب له عن الحب ، فيشعر أنه سيد العالم ، « فسلام الله الذى يفوق كل فهم » (فيلبى ٤ : ٧) يملأ قلبه ، وفرح السماء يسكن روحه ويحسّ أنه « يستطيع كل شيء فى الذى يقويه » (فيلبى ٤ : ١٣) ،

ويرى من الطبيعي أن يقول الرسول لأهل كورنثيه: « إذا أكلتم، أو شربتم ، ومهما عملتم ، فاعملوا كل شيء لمجد الله » (١ كور ١٠ : ٣١) هذا ربيع النفس ، فلم يبق العالم كما كان ، ولا النفس كما كانت .

* * *

على حين بقى كل شيء مكانه . فالعالم لم يتغيّر، ولا الناس تغيروا، ولا الشخص نفسه تغيّر ، فهو محتاج كما كان من قبل إلى الطعام والشراب ، وإلى النوم والكسوة ، والسكنى . وعليه أن يكسب معاشه ، ويمارس مهنته ، ويرعى أسرته ، ويربى أولاده . فحياته الطبيعية لا تزال تسير على ما تقتضيه طبيعة الإنسان الاجتماعية . . . ولكن هذا المهتدى يشعر أن حياته المادية نفسها ينبغى أن تتغير تغير حياته الروحية . فهو يتساءل : « ماذا علىّ الآن أن أعمل وأنا مسيحى ؟ » فإذا كانت حياته مستقيمة، يقال له: « استمرّ على ما أنت عليه . مارس وظيفتك ، أحب زوجك ، وربّ أولادك » .

ولكنه يقول قد قمت بهذا كله ، كما قال الشاب الغنى فى الإنجيل؛ فنظر إليه يسوع وأحبه .

إن يسوع يحب من يأتون إليه ، بعد أن يكونوا قد سمعوا كلامه ، وباتوا لا يقدرون أن يحيوا كما كانوا يحيون من قبل .

فيقول له حينئذ : « أمر واحد ينقصك ، امض ، وبع كل مالك ،

وأعطه للمساكين . فيكون لك كنز فى السماء ؛ ثم تعال اتبعنى (مرقس ١٠ : ٢١) .

هذا النص قد اقتضى شروحاً كثيرة ، إذ أنه يجعلنا نصب شريعة تأمر بالزهد والتخلى العام . ولا يسعنا أن نفهم الحياة المسيحية فهماً صحيحاً ما لم نوضّح كيف تغلغل فيها هذا التخلّى العام .

فرواية الشاب الغنى واردة بنصها فى أناجيل متى واوقا ومرقس ، مع اختلاف يسير فى بعض الكلمات . فمتى وحده يتكلم عن شاب ومرقس يقول « إن واحداً » أمّا لوقا فيقول : « إن رئيساً » .

فلما قال الشاب إنه حفظ الوصايا منذ صغره ، قال له يسوع ، بحسب رواية القديس متى : « إذا شئت أن تكون كاملاً ، فامض وبع ما لك... إلخ » أما بحسب رواية مرقس واوقا ، فإن يسوع قد قال له : « أمر واحد ينقصك » . فاتفاق مرقس ولوقا يحملنا على الأخذ بقولهما . غير أن الاختلاف ، بين النصوص فى رواية تتضمن حادثاً واحداً ومعلومات واحدة ، يدل على أن الرسل ما كانوا ليعلقوا أهمية كبرى على صيغة الكلام ولا على الشخص عينه .

ولذلك اعتمد المفسرون ، مع الأيام على عبارة متى : « إذا شئت أن تكون كاملاً . . . » لكى يؤسسوا عليها روحية كاملة فى الحياة المسيحية تناقض خمسين نصاً إنجيلياً . فاتخذت هذه العبارة مكانة بالغة الأهمية فى التعليم الأدبى .

فاعتبروا أن يسوع بقوله : « إن شئت أن تكون كاملاً » ، كان يريد أن يميّز درجتين أو منطقتين فى الحياة الروحية : درجة الواجب أو الإلزام المفروضة فى الشريعة ، ودرجة الكمال الاختيارية المعروضة على من يريدون أن يتقيدوا بها . فكلمة « إذا شئت أن تكون كاملاً » تيّسر لنا أن نفسّر بهذا المعنى جميع النصوص التى ناقضها بها يسوع ، كقوله : « من لا يترك كل شيء ويتبعنى ، فلا يستحق أن يكون لى تلميذاً » .

ولكن فى سياق الرواية ، عند متى والرسولين الآخرين ، ما يخالف هذا التفسير . فقد ذكروا أن الشاب — الذى يقوم بكل واجبه كما قيل — قد مضى حزيناً لأنه كان ذا مال كثير . فقال يسوع : « الحق ، الحق أقول لكم إنه ليعسر على الغنى أن يدخل ملكوت السماوات ؛ بل أقول لكم ، إنه لأسهل أن يدخل جمل فى ثقب الإبرة من أن يدخل غنى فى ملكوت السماوات » (متى ١٩ : ٢٢ — ٢٤) .

فلو كان الشاب قد قام بكل واجبه ، لكان كلام يسوع هنا خالياً من المعنى ؛ إذ لا يعقل أن يحرم من دخول ملكوت السماوات من يقوم بكل ما يجب عليه .

* * *

وفى الإنجيل نصان آخران متوازيان يمهدان لنا السبيل إلى تفسير يختلف قليلا ، ولكنه يتفق وتعليم يسوع كله .

والمقصود هنا ما جاء فيما أوردناه من نص متى واوقا فى التخلى عن الأهواء البشرية .

قال متى : « من أحب أباً أو أمًّا أكثر منى فلا يستحقنى » (١٠ : ٣٧) وكتب لوقا : « من يأتى إلىّ ولا يبغض أباه وأمه فلا يستطيع أن يكون لى تلميذاً » (١٤ : ٢٦) .

فهذه الآيات وما أشبهها تبيح لنا أن نفترض أنها كانت تتردد كثيراً على لسان يسوع ، وتختلف شدة باختلاف التعابير والألفاظ التى كان يستعملها : « من أحبّ أكثر . . . من لا يبغض » . . .

فلم يكن يسوع يعبر عنها تعبيراً متشابهاً ولا كان الإنجيليون يعلقون على اللفظ كبير أهمية . فيظهر لنا أن أصح تفسير لها أن يسوع يتطلب منا أن نؤثره على كل شيء وأن نكون مستعدين أن نضحى من أجله بأى شيء ، حتى حب الوالدين والزوجة والأولاد وبنفسنا ذاتها .

أمّا أن نكون مستعدين للتضحية بأى خير فهذا لا يذهب بنا الى وجوب التضحية واقعيًّا كل حين .

* * *

هذا التفسير السابق يثبته مسلك يسوع العملى .

لقد أشرت فى الصفحات السابقة إلى أن المعلم الإلهى لم يكن ليهتم بما يخص نظام الحياة الطبيعى ، ولا كان يتجنب الكلام فقط عن الشؤون الاجتماعية ، والحياة المهنية والعائلية ، بل كان إذا حاول أحد أن يحمله على

معالجة هذه الأمور ، يأبى ، وقد يرفض كل الرفض ، كما حدث لمن كان يريد أن يمضي ويدفن أباه ، ومن طلب منه إلزام أخيه بأن يقاسمه الميراث .

أما فيما يخص أتباعه فهو يفتح ذراعيه لمن يأتي إليه .

على حين أنه لم يكن يؤثم أى عمل دنيوى كان ، إذا كان سائراً على نهج الأمور الطبيعية . فهو يمدح إيمان قائد المائة ، ولا يلوم حياته الجندية . ويثنى على زكا ، ولا يدعوه إلى ترك مهنته ، ويغتنم فرصة جلوسه إلى مائدته لينصحه أن يدعو الفقراء إلى طعامه ، دون أن يكلفه أن يوزع عليهم ماله . وفى أمثاله ، كمثل الابن الشاطر ومثل الوليمة ، يذكر أشخاصاً سادة وأغنياء ، فلا يؤاخذهم على شيء ، بل قد يتخذهم مثالاً للآب السماوى .

وإذا تحدث عن العبيد ، رأى من الواجب أن يخلصوا لأسيادهم ؛ وإن تكلم عن الأولاد وجد لزاماً أن يحترموا والديهم ، وإن صور الغنىّ الشرير فى الجحيم ، فليس لأنه غنى ، ولكن لأنه كان غنيًّا شريراً ، فهو ، إذن ، يتصور أغنياء صالحين ، ولا يلزم كل غنى أن يوزع أمواله جميعها .

وأحب يسوع أمه حبًّا رقيقاً ، وما تركها إلا على قدر ما كانت تقتضيه خدمة الآب ؛ فلم يبغضها ، ولا هجرها ، وقد كانت ، ساعة آلامه ، واقفة بالقرب منه . وكان له أحباء لم يكن يخفى حبه لهم ، فبكى

على قبر لعازر (يوحنا ١١ : ٣٥) وأحب وطنه فانتحب على أورشليم (متى ٢٣ : ٣٧ ولوقا ١٣ : ٣٤) .

أما قوله « من ضربك على خدك ، فحوّل له الآخر » أو « من سألك ثوبك ، فاترك له رداءك » ، فهذه ليست ، بدون شك ، وصية عامّة ، لأن يسوع نفسه لم يتقيد بها ؛ وقد أجاب بشدة من كانوا يهينونه . والرسل اعترضوا على ما كانوا يلقونه من سوء المعاملة . فبولس لجأ إلى السياسة ليتفلت من المطاردة ، ويمضى إلى قيصر ، بصفته مواطناً رومانيًّا ، حينما طلب اليهود تسليمه إلى محاكمهم .

فهذا القسم جميعه من تعليم يسوع . إنما كانت الغاية منه رسم روحانيته — أى الاستعداد الروحى الذى ينتظره المعلم من تلميذه . يجب على المسيحى أن يكون مستعدًّا ، أن يعمل هذا كله ، إذا ما اقتضته خدمة الله ؛ ولكن قد يحدث ألا تقتضيه . فخدمة الله فى ترتيب الأمور العادية لا تطلب من الزوج أن يفارق زوجته ، ولا تطلب من الوالدين أن يتركوا أولادهم ، ولكن ذلك قد يحدث ، وقد حدث . فعلى المسيحى أن يكون مستعدًّا .

فالشاب الغنى لم يكن مستعدًّا ، فامتحنه يسوع ، وهيّأ له فرصة تتمناها كل نفس كبيرة ، لتظهر مدى ما تستطيعه من السخاء . فأضاع الفرصة ، ودلّ على تعلقه بالمال من أجل المال . ولم تكن أمواله فى نظره وسائل لخدمة الله بل لخدمته هو نفسه .

لهذا ، يرثى يسوع لحال الأغنياء ، إذ يصعب على الغنى أن يكون مستعداً لكل شيء متى كان عليه أن يخسر شيئاً ، فخيرات الدنيا تعلق قلبه فى الدنيا : وهل يرقى إلى الله من كان مربوطاً فى الأرض ؟

أما زكّا ، فكان غنيًّا ، ولكنه دلّ أنه لم يكن متعلقاً بثروته ، فكفاه أن نزل يسوع عنده حتى أعطى الفقراء نصف أمواله . ويسوع لم يطلب منه مزيداً ، ولا بحث فى الأرقام بل حكم على استعداد القلب ، وتلقائية السلوك : « اليوم حصل الخلاص لهذا البيت » .

* * *

التخلّى هو أن يكون المسيحى مستعدًّا ، غير مرتبط بشيء ، بل متهيئاً لكل شيء ، متحرراً من كل القيم البشرية ، مستعدًّا لفقد ذويه ، وفقد وطنه ، وفقد ماله ، إذا ما اقتضته ذلك خدمة المسيح .

ولقد رأى عصرنا هذا عدداً كبيراً من مسيحيين أغنياء ومعتبرين ، كانوا يشغلون مراتب اجتماعية عالية ، من رجال السياسة ، ومن رؤساء الأعمال ، والعلماء قد سفكوا دمهم وضحّوا بثرواتهم ، وهجروا أوطانهم لأنهم كاثوليكيون . وقد كانوا فى موقف الشاب الغنى ، ذوى مال وجاه . وكانوا قادرين أن يجمعوا بين نظام يهدم روح شعبهم وبين حفظ خيراتهم الزمنية ، ولكنهم ، إذ أتيحت لهم الفرصة ، اختاروا أن يظهروا أنهم كانوا للمسيح ، ودلت سرعة قبولهم للتضحية على مقدار استعدادهم ، وعلى فرحهم باغتنام هذه الفرصة ليبرهنوا عن تعلقهم بالمسيح .

مستعدّون : لا يكون المسيحي مسيحيًّا إلا إذا كان مستعدًّا ، مستعدًّا لكل شيء . « يا معلم ، ماذا تريد أن أصنع ؟ » — ثم يصنع .

ما من أحد عاش زماناً فى الكنيسة ولم يشهد أحوالاً تحققت فيها حرفيًّا وصية من وصايا الرب فى التخلّى . فهناك أولاد طردهم آباؤهم لأنهم كاثوليكيون ؛ ومهتدون فارقهم أزواجهم وأولادهم ، وبنات هربن من بيوتهن ليحتفظن بإيمانهن ، ومهتدون آخرون أنكرهم ذووهم ، فاضطروا إلى الرحيل عن ديارهم . وأولئك الرعاة الإنجليكان الراجعون إلى الكنيسة الكاثوليكية ، وهم لا يستطيعون أن يصيروا كهنة كاثوليكيين ، لأنهم متزوجون ، يمسون ، لا مورد لهم للرزق ، ويرضون ألا يكونوا شيئاً ، بعد أن كانوا فى كنيستهم سكرّمين محترمين . وحسبهم أنهم وجدوا المسيح فى الكنيسة الكاثوليكية .

ولكن ، كم بجانب هؤلاء من مثل الشاب الغنى ، لا يقدمون على التضحية ، ويظلون مترددين ، أمام دعوة المعلم ، ولا يبلغون إلى بذل الذات ، لأنهم لا يقوون على التخلّى .

* * *

ثم إن يسوع لا يطلب من تلاميذه جميعاً تضحيات قاطعة . فلم يكلف ، مدة حياته بيننا ، غير رسله ، أن يتخلّوا ماديًّا عن كل شيء . أما الباقون فقد تركهم وشأنهم ، غير أن الرسل ، فى نظر المسيحيين ، كانوا المفضَّلين .

لكن ، قلّ ما بيننا من لا يرى نفسه ، بين حين وآخر ، عرضة لتضحية قاطعة . فهذا زوج يفقد زوجه ، وهذه زوجة تفقد زوجها شاباً ، أو والدان يفقدان ولدهما ، أو غنى يخسر ثروته ، أو إنسان آخر كان فى عمله ناجحاً ، ثم أخفق إخفاقاً قاطعاً ، أو شاب وشابة ابتليا بحب تعس ، أو رجل أو امرأة يمرضان وهما فى ريعان الشباب ... وجميع ما نشاهده كل يوم .

فى هذه الأحوال ، يُعرف المسيحيون الحقيقيون . فالمسيحى الحقيقى مستعدّ ؛ نعم ، هو سيد ماله ، ينعم به ولكنه لا يعلّق به قلبه ؛ لأن قلبه حيث هو كنزه . وكنزه حيث لا دود يقرض ، ولا صدأ يفسد . فهو يقبل راضياً ، ولا يكتفى بالقبول ، بل يقول كما كان أيوب فى العهد القديم يقول : « الرب أعطى والرب أخذ ؛ فليكن اسم الرب مباركاً » . ويبلغ بالمسيحى استعداده إلى أبعد الحدود ، لأنه استعداد إنسان محب ، ليس إلهه يهوه رب الجنود ، بل هو الآب السماوى . فإن يتألم لخسرانه ما يحبه ، فهو يحب الألم لأنه يطهره .

قد يرتجف الإنسان من قبول التضحية ، ومن حسبانها هدية حبية — فإن موت زوج عزيز ، أو زوجة ، أو ولد ، قبل الأوان هو حدث ضد الطبيعة ، لأن الإنسان لم يوجد لكى يموت فى العشرين من عمره . فالرضى بهذا التخلّى ضرب من قسوة القلب . ومع ذلك . . .

إن الله ينزعه منا ليضمه إليه — وهذا ما نردده عادة قائلين إن الحزن

ليس على الميت — فإذن ؟ إذا كنا مقتنعين أن المهم أن نكون مع يسوع ، وإذا كنا واثقين بأن لنا فى السماء أباً لا يسمح بسقوط شعرة من رؤوسنا ، إلا لخيرنا ، فماذا بقى ؟ بقى أنا كنا نعتقد أن خيرنا ، وسعادتنا ، وخدمة ربنا فى أن نكون متزوجين ، والمسيح يطلب منا أن نعيش بلا زواج ؛ وكنا نعتقد أن خدمة الله فى أن نحسن استعمال ما لنا ، والمسيح يطلب منا أن نحيا فقراء ؛ وكنا نعتقد أن خدمة الله فى أن نعمل ونحن فى صحة جيدة ، والمسيح يطلب منا أن نصبر على ما يحل بنا من الأمراض .

وقد نرى ضروباً من التخلّى أدق مما تقدم .

فهؤلاء مسيحيون أتقياء يريدون أن يتكرّسوا للمسيح فى الحالة الرهبانية أو فى الحياة الكهنوتية ، ولا غاية لهم إلاّ أن يكونوا له ، ولكنهم يلتزمون أن يتخلّوا عن هذه الحالة لأجله ، لأنه لا يريد أن يخدموه فيها .

فإذا كانوا حقّاً مستعدين ، وإذا كانوا لا يرغبون إلا أن يتبعوا يسوع ، ولا يحبون شيئاً سواه ، فكيف لا يرضون ولا يكونون سعداء ، حين يقدّم لهم فرصة يحققون فيها تسليمهم المطلق لمشيئته ؟

* * *

كم من المسيحيين يحققون هذه الاستعدادات التى يطلبها يسوع من تلاميذه ؟

إنا لنسمع كل يوم مثل هذا الاعتراض :

« لا يمكن أن يكون الله محبّاً ، وقد حرمنى سعادتى ، على حين أنى

لم أصنع فى حياتى إلا الخير » .

« لم أصنع إلا الخير » : الفريسى .

« الله حرمنى من سعادتى » : الشاب الغنى .

كلا ، يا مسكين ، بل لتجدن سعادتك ، فى هذا الحرمان .

وعندما نرى قلة عدد من يفهم من المسيحيين ، ويقبل مشيئة الله ، ندرك حدّة أقوال يسوع ، ونفهم أنه يقدّم هذه الحالات النادرة كوصايا مطلقة ، لأنه يريد أن يسترعى الذهن ، ويحمل على التفكير ، ويجبر على الاختيار ، ولو قصداً ، إن لم يكن فعلاً .

فأول ما يجب على المسيحى ، متى كان فى سعادة كبرى ، أن يطرح سعادته بين يدى المعلم الإلهى وأن يكون مستعداً لأن يفقدها إذا اقتضت خدمة الله ذلك .

* * *

لا يكون التخلى فى الأمور الكبيرة وحدها ، بل يكون فى كل شىء ، وفى كل وقت : فى الحر والبرد ، فى الصحو والمطر فى النجاح والفشل ، وفى التساهل مع الآخرين فى مراعاة أذواقهم واحترام آرائهم ، وإتيان ما يسرّهم .

« من سألك أن تماشيه ألف خطوة ، فماشه فوقها ألفين ». ومثل القديس فرنسيس دى سال « لا تطلب شيئاً ، ولا ترفض شيئاً » وارض بكل شىء . مبتدئاً برضائك عن نفسك ؛ لا تدّع بما ليس فيك من المناقب ،

ولا تأسف على حرمانك مما عند غيرك . ولا تفتخر بما عندك وليس عند سواك . ولكن اسأل لماذا قبلت ما قبلت ؟ فأى شيء لنا ولم نقبله ؟ .

« وعلى كل حال ، وفى كل وقت ، اشكروا الله الآب ، باسم ربنا يسوع المسيح » (أفس ٥ : ٢٠) .

* * *

أن نكون مستعدين ، لا يعنى أن نكون بلا شعور . فيسوع شعر بالآلام حتى النزع . والآباء عليهم أن يحبوا أبناءهم ، والأزواج نساءهم ؛ وهذا حب شرعه الله نفسه ؛ فمن فجع بأحد ممن هو مرتبط بهم ارتباطاً شرعياً ، فمن الطبيعى أن يحزن ويتألم . ومن لا يتألم لمثل هذا ، فهو زاهد غير مكترث ؛ والزهد فى هذه الحال جريمة من زوج نحو زوجه ، ومن زوجة نحو زوجها ، ومن والدين نحو أولادهم ، ومن وطنى نحو وطنه . فيسوع يطلب من تلاميذه أن يحبوه فوق كل شيء ، لأنه هو الذى فوق كل شيء ، والذى أمام كماله يختفى كل كمال ؛ ولكن حبه لا يلاشى الشعور بل يهذبه ويمحصه . ونحن من أجله نتخلى عن ذاتنا ، ونظهر هذا التخلى بقبول ما ينزل بنا من الآلام ، عندما نفاجأ بما يدمى طبيعتنا من قطع أحد تلك الربط المشروعة التى تربطنا بمن نحبهم .

* * *

مستعدون أن نستسلم ، بلا مقاومة ، لحب الله ، وكلا الأمرين يظهران فى الأمور الصغيرة أكثر مما يظهران فى الأمور الكبيرة . لأننا نتلقى فى

الأمور الصغيرة دروس الحياة : « من كان أميناً فى الصغائر ، كان أميناً فى الكبائر » (لو ١٦ : ١٠) فالأمور الصغيرة يومية ، والكبيرة لا تحدث إلا اتفاقاً .

الأمور الصغيرة تحدث كل يوم ، أمّا الكبيرة فلا تحدث إلا مصادفة ، حتّى من يتخلى لأجل المسيح عن أهله ، ووطنه وعن مهنته ، فإنه لا يلبث أن يعود إلى حياة يومية مؤلفة من أمور صغيرة ، فهو يستقر فى وطن آخر ، بين قوم آخرين ؛ ويتعاطى أعمالا ، ويخالط بشراً ، فتعود حياته وأحداثها الرتيبة إلى ما كانت عليه من قبل . لقد قام مرةً بتضحية كبرى ، ثم صار عليه بعدها أن يكون مستعدّاً ، طوال ما بقى له من السنين .

أما إذا كانت التضحية بالحياة ، فإنها تكون أمراً خارق العادة يتوج الحياة كلها ، والشهيد — إذ المقصود هنا من يموت من أجل المسيح — فإنه يدلّ بموته على مكانة نفسه من السموّ . .

ومهما يكن فالتضحيات العظيمة لا تكون إلا استثنائية . والمسيح نفسه قد عاش ثلاثين سنة عيشة كانت فى ظاهرها عادية . والسنوات الثلاث من حياته العامة تعاقبت أيامها ما بين الفوز والمقاومة ، كما يحدث لكل من يأتى بأفكار جديدة . ثم نزلت به الآلام فكلّلت حياته ، وأظهرت للملأ ما كان فيه من العظمة ، وقد تمّ ذلك بين عشية وضحاها .

أما التضحيات التى لا تنتهى بالموت ، فأصعب ما فيها ، أحياناً طول مدتها . فمن تخلى عن ماله ، وعن مركزه الاجتماعى من أجل المسيح ،

فقد يقوم بذلك بلا مشقة ، غير أنه متى رأى نفسه بعد ذلك منتقصاً منحطًّا طول حياته ، فقد يمتعض ويحتاج إلى تخل أشق من تخليه الأول ، ليقبل ما يتجرعه يوميًّا من المرائر ، ولا سيما إذا ابتلى بمرض طويل ، وصار لا يدرى متى يشفى ، أو هل يشفى .

* * *

إن ما يطلبه يسوع هو الاستعداد الروحى ، لا الانقلاب المادى فى الحياة .

فإذا كنا نصنع الشر ، وجب أن نترك صنعه . « من كان سارقاً ، فلا يسرق بعد . بل فليكد عاملاً بيديه ما هو صالح حتى يكون له ما يشرك به المحتاج » (أفس ٤ : ٢٨) .

فكلام الرسول نفسه يدل على أنه لا ينتظر من المؤمنين أن يتركوا العالم ، ويعيشوا عيشة خاصة ، بل أن يعيشوا عيشة روحية فى أى حالة كانوا .

وإذا لم يكن المسيحى متزوجاً ، فعليه أن يختار إما التزوج وإما التبتل ، للتخصص فى خدمة الله . وقد أظهر يسوع فضل البتولية على الزواج فى (متى ١٩ : ١٢) . فمن استطاع أن يصون نفسه من أجل ملكوت الله ، فليفعل .

فالزواج والتبتل كلاهما فى خدمة الله ، وللمسيحى أن يختار ما يشاء .

وثم أمور أخرى أقل أهمية تعترضه فى كل مرحلة من مراحل حياته ؛

ولكن الأمر المهم الأوحد أن تظل النفس متجهة نحو المسيح .

* * *

فالمسيحي، إذن ، إنسان مستسلم، لا استسلاما سلبيًّا ، على طريقة الرواقيين والبوذيين ، بل استسلاماً هو ثمرة حب عظيم ؛ وما التخلي فى الأصل إلا مقدمة ؛ إذ أن موضوع الوحي المسيحي هو حب الآب، ويسوع رسول هذا الحب ، والدليل عليه ، وواسطته ؛ وهو لا يدعونا إلى التخلّي فحسب ، بل إلى اتباعه ؛ فما التخلى إلا وسيلة إلى العطاء الكامل .

ويسوع لا يريد التقسيم فى الحب ، لأن الحب الإلهى حب غيور ، وهو من الطهر والسمو بحيث لا يمكن أن يدانيه أى حب آخر . ثم إن يسوع لا يقبل من التلاميذ إلا من وهبوا نفسهم كلها ؛ فإلى هذا تنتهى الدعوة المسيحية : إلى العطاء ، لا إلى التخلى .

ولست تبتدئ بالتخلّي لكي تعطى ذاتك فيما بعد : « من أراد أن يكون لى تلميذاً . . . » ها هى ذى المسألة ، أن تكون تلميذاً . إنك تتخلى، عندما تهب نفسك . ولكنك لا تهب نفسك حقًّا إلا إذا شملت هبتك التخلى . فلست تهب نفسك ، عندما تحتفظ بها ؛ ولا تهب نفسك ، عندما تعطى شيئاً وتحتفظ بشيء آخر فى الوقت نفسه .

« أيها المعلم ، أريد أن أتبعك ، لأنى أرى اتباعك شيئاً جميلاً . ولكن بم ينبغى أن أضحّى فى سبيل ذلك؟ أيها المعلم ، أريد أن أتبعك ،

ولكن ، لا تطلب مني هذا الأمر ، ولا ذاك ؛ أريد أن أعطى شيئاً ولكن ، يلزم أن أعرف ، قبل أن أخاطر ، إلى أين تبلغ بي» .

كلا ، لا يريد يسوع تلاميذ من هؤلاء الباعة الجوّالين .

لقد يطلب كل شيء ، وقد لا يطلب شيئاً . إنه يطلب أن تكون مستعدًّا لكل شيء . فالتلميذ الحقيقي إن لم يطلب منه شيء ، فإنه يحزن من عدم عطائه شيئاً ، ويشعر أن استعداده للعطاء لا يكفي ، بل يجب عليه أن يعطي فعلاً .

وهناك من هم على أهبة الاهتداء ، يسألون : « ما عسى هذا أن يكلفني ؟ » فأقول له : « كل شيء ، لا شيء ، لا أدرى ، لا أدرى ما يجرى لك ، متى صرت مسيحيًّا ، لا أدرى ما عسى أن يطلبه المعلم منك . فإن صرت مسيحيًّا ، فإنك تجازف بنفسك كل المجازفة » .

لا تدرى ما يطلب منك . قد يطلب من واحد أكثر ، ومن آخر أقلّ ، ومن ثالث ، لا يطلب شيئاً ، لكنه يطلب من الجميع أن يكونوا مستعدين .

لا أهمية لما تهبه ، ما دمت مستعدًّا للعطاء . ولكن ينبغي أن تكون مستعدًّا ، ومتى كنت كذلك فإنك لا تسأل ، ولا تشارط .

وقف زكا ، أمام يسوع وقال : « هأنذا ، يا سيدى ، أعطى المساكين نصف أموالى ؛ وإن كنت قد ظلمت أحداً في شيء فإنى أردّ

أربعة أضعاف » . إنا نشعر أن زكا كان مستعداً أن يعطى كل أمواله ، لو أن يسوع تكلم . ولكنه لم يقل شيئاً . فسواء عنده أأعطى النصف ، أم الربع ، أم الثلثين . الأهمية كلها فى كرم النفس . فإن يسوع أعجبته حميّة زكا فضمه إلى تلاميذه .

الفصل السادس

الحياة الداخلية

الحياة المسيحية هي حالة روحية . فإذا كنت مسيحيًّا ، فما ذلك لتفعل هذا الفعل أو ذاك — فالمسيحي يحضر القداس يوم الأحد ، ويحفظ وصايا الله، ولكن ليس هذا كافياً . من كان مسيحيًّا، فهو مستسلم للمسيح .

حالة روحية : الحالة الروحية شيء داخلي ؛ ولهذا فالحياة المسيحية هي حياة داخلية .

* * *

إذا كان المقصود أن نتبع يسوع ، فعلينا أن نعرف من هو يسوع . ولا يكفي أن نراه مرة ، بل ينبغي أن يكون نصب عيوننا ، في كل حين .

لم يكن زكا متعلقاً كثيراً بأمواله ، ولم يخطر بباله قط أن يتخلى عنها ، ولكنه قد فكّر فيها ، عندما رأى يسوع في منزله ، ونحن يجب أن نرى يسوع عندنا حتى نهب له نفسنا .

غير أننا لا يمكننا أن نراه حسيًّا عندنا كما رآه زكا في داره إنما نجده في الإنجيل ، وفي القربان ، ونجده في الصلاة . فحضور يسوع في

ذهننا ، وتركه يستولى على قلبنا ذلك شأن الحياة الداخلية .

وأن نرى أن لا خير يكون خيراً إذا كان ضد الخير ، وأن نرى أن المسيح هو الخير ، وأن نرى أن لا قيمة لشىء خارج المسيح ، وأن كل شىء يستمد منه معناه ، وأن نرى كل هذا ، تلقائيًّا ، فى كل شىء وفى كل حين ، ذلك دليل أن فكرنا مشغول به . وهذه هى الحياة الداخلية .

ليس المقصود أن نصنع هذا أو ذاك . إن فى العالم آداباً للسلوك ينبغى للمسيحيين أن يتقيدوا بها . ولكن من كان مسيحيًّا لا يقتصر عليها . فالضرورى له أن يؤخذ وأن يجرفه تيار الحب ، وأن يحيا فى الحب ، وليس عليه من أجل هذا أن يأتى هذا العمل أو سواه فكل عمل يمكنه أن يعبر عن الحب ، لأن الحب استعداد فى النفس يتكون فى الحياة الداخلية . والحب يكون باطلاً إن لم تطابقه الأفعال .

* * *

المسيحى إنسان يحمل سرًّا . يشع من أفعاله جميعها ومن حياته بجميعها نور الحياة الداخلية . ولكن هذه الحياة خفية ، يرى الناس إشعاعها ولا يرون مركز الإشعاع .

هى حياة داخلية : « ملكوت الله فى داخلكم » فالمسيحى ليس وحده . فحياته مثنوية ، يحيا ومعلماً يفوق حبه كل وصف .

* * *

لما كان يسوع على الأرض ، كان الرسل يشاهدونه ، وكانوا قليلين ، يسايرونه ويستمعون إلى تعليمه أينما علّم فاستولى على عقولهم وقلوبهم ، ولم يبرح . . . ونحن ينبغى لنا ، بكوننا مسيحيين ، أن نكون نظيرهم ، تحت سيطرة يسوع ، بحيث نستوحى من فكره ومن إرادته وحبه جميع أفعالنا . وهذا يوجب علينا أن نكون دائماً معه وعلى اتصال به .

ولن نكونن مسيحيين حقيقيين ، ما لم تكن حياتنا الداخلية حية ، مركزة على المسيح . فالمسيحى من يسير ونصب عينه رؤيا الرب . غير أن هذا لا يتم عفواً . ولا يكفى أن نلمح هذه الرؤيا مرة ، يوم ارتدادنا . فقد تزول الرؤيا سريعاً . لأن يسوع لا يفرض نفسه على عيوننا ، بل على عيوننا أن تتجه دائماً صوبه .

* * *

وكيف يتم ذلك ؟ يتمّ كما يتفق . ولكن المهمّ أن يتمّ .

إن الروحيين ما برحوا ، منذ بدء المسيحية ، يبحثون عن أفضل الوسائل للاتحاد بالمسيح . فكتبوا فى ذلك ألوفاً من المجلدات ، وعرضوا طرائق مختلفة . وكوّنوا مدارس . . فجميع ذلك حسن ، لا بأس فيه ، على أن يؤدى إلى الغاية .

لكن هناك أمراً جوهرياً ، وهو أن يكون يسوع مركز الحياة الداخلية ، وأن نبلغ به إلى حب الآب ، وبالحب إلى الاتحاد بالله .

يمكننا أن نتصور حياة داخلية مركزة على كمال الله وعلى عظمته

كما تصورها بعض المؤلفين الروحيين . وهذه الحياة لا تتعارض والمسيحية ولكنها غير خاصة بها . فهناك متصوفون من اليهود والمسلمين يمارسون هذه الحياة نظيرنا .

ولنا أن نتصور أيضاً حياة داخلية مخصصة بالتأمل فى الفضائل ، وبالتحليل النفسى ، ومراقبة الذات للوصول إلى الكمال .

وهذه الطريقة ليست مسيحية فقط ، فإنا نجدها عند الحكماء فى جميع الأديان . أما ما هو خاص بالمسيحى ، فليس أن يعرف أن الله موجود ، وأنه كامل ، وسامٍ ، ودائم ، بل أن يعرف أن الله أبونا . وليس أن نطلب الكمال ، ولكن بأن نعرف أن يسوع قد أتانا ببشارة الحب الإلهى ، وبأن هذا الحب يحيا فينا ، وأن علينا أن نحب جميع البشر إخوتنا فى حب المسيح الذى يحيا فينا .

من كان مسيحياً يجب أن يكون كالمسيح ، لا بأفعاله المادية ، بل بالدافع إليها ، مما يسترعى الاتحاد الفعلى بالمسيح ، والتأمل الدائم بتعليمه ، والنظر إليه كل حين ، ليكون وإياه روحاً واحداً كما يقول القديس بولس فى رسالته إلى الغلاطيين : « لست أنا حياً بعد ، بل هو المسيح ، يحيا فىّ » (غلا ٢ : ٢٠) وفى رسالته إلى الفيلبيين (١ : ٢١) « حياتى هى المسيح » .

* * *

الحياة المسيحية ، قبل كل شىء ، حياة داخلية ، حياة أنس بالله ،

في صميم الروح ، بواسطة المسيح . وما هي مثل أي حياة داخلية ، هي حياة داخلية خاصة ، روحها المسيح ، وجوها الحب الإلهي .

ثم إن المسيحي ليس له أن يتهاون في التهذيب الخلقي والآداب الطبيعية ؛ فإنها أركان الحياة الإلهية وأساسها . غير أن الحياة المسيحية تتجاوز الأدب الطبيعي والزهد البسيط كما تتجاوز المعرفة بالسمو الإلهي ، وهي لا تضادّها بل تقتضيها ، كما يقتضي الجبل وجود السهل . لكن من تنسّم ريح القيم شعر بحياة أخرى .

الفصل السابع

المسيحى فى العالم

يعيش المسيحى وسط العالم ، وعليه أن يحمل فى العالم محبة المسيح . وبمَ يمكن أن توحى إليه المحبة ؟

قد يمكن أن توحى إليه بجميع ضروب الأعمال .

يقول المسيح : « يعرف الناس أنكم تلاميذى ، إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً كما أحببتكم » وفى المحبة غنى . أحبّ وافعل ما يوحى به الحب إليك . فالحب قد يوحى بكل شىء ، متى دعت الحاجة .

* * *

إن يسوع لا يغيّر نظام الطبيعة ، فعلى المسيحى أن يحيا بحسب مقتضياتها . لما ظهرت الحياة الرهبانية فى الكنيسة ولزم إنشاء ديورة يعيش فيها الناس عيشة اجتماعية ، استخدم الرهبان المحراث ، وطحنوا الحب ، وخبزوا العيش ، وربوا البهائم ، واستعملوا المسيعة والمنشار ، وتعلموا القراءة والكتابة واشتروا وباعوا ، وكان منهم رؤساء يتولون إدارة شؤونهم . فالفعل المسيحى قوامه نيّته لا مادّته .

وجاء يسوع بأمثلة يعرف الناس بها تلاميذه منها : إطعام الجياع ،

وكسوة العراة ، ومعالجة المرضى ، وزيارة المسجونين . فإذا قمنا بذلك نحو أصغر إخوتنا ، فقد قمنا به نحو يسوع نفسه . وهذه الأمور يمكن إتمامها بوجوه أخرى كثيرة .

والمحبة تتجه إلى أشد الناس حاجة ، فتكون حينئذ خالصة . إذ نقوم بها نحو من لا ننتظر منهم أية مكافأة . وبهذا أشار يسوع على الفريسى حين أوصاه أن يدعو البائسين إلى مائدته .

أما السجناء ، فمن حاول أن ينال لهم محاكمة عدلاً ، أو يبلغ بهم إلى الإصلاح ، كان أبرّ بهم وأحنى عليهم ممن يشفق عليهم شفقة عاطفية . وإذا أمكن رجال القانون أن يمارسوا المحبة نحوهم كانوا أنفع لهم ممن يقدّمون لهم هدايا .

« لما كان يسوع فى الهيكل ، رأى أغنياء يلقون تقادمهم فى الخزانة . وأبصر أيضاً أرملة مسكينة تلقى هناك فلسين . فقال ، فى الحقيقة أقول لكم ، إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من الجميع ؛ لأن هؤلاء جميعاً ألقوا تقادم من فضالتهم ، وأما هذه ، فمما هى إليه بحاجة ، إنها ألقت كل معيشتها » (لوقا ٢١ : ١ — ٤) .

فإطعام الجياع وكسوة العراة ذلك أكثر أعمال المحبة شيوعاً . ولكن أفضل منهما أن نحمى الجميع من الجوع والعرى .

فمن اخترع آلة للنسيج ، عمل على كثرة الإنتاج وخفض الأسعار وسهّل كسوة الفقراء بنفقات يسيرة ؛ ومن علم الفلاحين حسن استعمال

السماد الكيماوى ، عاون على زيادة الغلآت ، وتخفيض ثمن الخبز ، وإزالة الفقر من البلاد .

وعيادة المرضى وعلاجهم من أعمال المحبة العادية ولكن ، من درس الطب ، أمكنه أن يحسن علاجهم وينفعهم أكثر ممن يجلس بجانب سريرهم . غير أن جميع الناس لا يستطيعون أن يخترعوا آلات أو يدرسوا علوماً ، فالمحبة تدفع كل واحد أن يفعل ما يستطيع .

ومن كان محباً حقاً ، يفعل ما يستطيع .

ثم إن سعادة الناس تتعلق بما يسود المجتمع من النظام ، وبما يكون فيه من الشرائع العادلة ، والشرطة الساهرة ، والطرقات الجيدة ، والعدالة اللازمة . فتتم معالجة المريض على أحسن وجه ، متى كان الطريق بين منزله ومنزل الطبيب أو المستشفى حسناً .

لقد تأسست فى العصر الوسيط أخوية غايتها إقامة الجسور فوق الأنهار والسواقى . لأن رداءة مقاطع الأنهار كانت تسهل لقطاع الطرق أن ينهبوا المسافرين . فكان الإخوة يبنون الجسور ويقيمون الملاجئ بقربها ، شفقة بالمسافرين ودفاعاً عنهم .

ويمكننا أن نذكر كثيراً من مثل هذه النادرة :

روى جان موسكوس فى كتابه عن الرهبان ما يأتى :

« كان فى صحراء فاسطين راهب يقيم فى كوخ ، بجانب الطريق ، ما بين أريحا وأورشليم . وكان قد تعود — أيام كان فى قريته ، إذا رأى

أحداً لا يقدر أن يزرع أرضه ، لشدة فقره ، أن يذهب إليها ليلا ببقره ، فيزرعها ، دون علم صاحبها . ولما جاء إلى الصحراء ، ظل يمارس فيها ما تعوده من أفعال المحبة . فكان يمضى إلى الطريق المقفرة بين القدس وأريحا ، ومعه الخبز والماء للمسافرين . فإذا وجد إنساناً تعبا ، حمل عنه حمله ، وسار معه إلى مقره . فكنت تستطيع أن تراه على الطريق ، حاملاً على ظهره حملاً ثقيلاً ، أو شائلاً على كتفه طفلاً . وكان المسافرون يرونه أحياناً جالساً على حافة الطريق يرقع حذاء مسافر أو مسافرة ، إذ كان معه دائماً ما يصلح به الأحذية . وقد يعمل فى ذلك طول يومه كما كان يحدث له مراراً أن يخلع ثيابه ليكسو من لم يبق على جلده غير خلقان من الملابس » (راجع ذلك فى حياة القديس باسيليوس الكبير طبعة دار المعارف) .

* * *

تقضى المحبة أن أرى فى كل إنسان أخاً لى ، وأن أحبه كأخى ، وأتمنى له السعادة كما أتمناها لأخى ، وأن يسعدنى أن أعاون على إسعاده .

فإن كنت موظفاً فى بنك ، فكل من وقف أمام شباكى فهو أخ لى يطلب منى خدمة ؛ وإن كنت خبازاً ، فكل عميل هو أخ يجب أن أخدمه . . .

وهذه المحبة لا تغيّر دائماً طبيعة الأعمال ، فالتاجر النبيه قد يجامل من يتردد إلى محله ، ليكسب رضاه ، أكثر مما يفعل التاجر المسيحى ؛

غير أن المحبة تلقى على مسلك من يرى فى روّاد محله إخوة جوًّا من النور غير جو المجاملة ولطف المعاماة .

وليس مستطاعاً أن نقول بماذا يقوم ذلك ؛ فهو جوّ فى المعاطاة أكثر منه فى الأفعال نفسها ، فهناك ألف ظرف وألف نوع فى المعاملة ؛ ولكن ما يمكن إثباته هو أن من يرى فى أمثاله إخوة ويعاملهم كإخوة ، تكون فيه خاصية لا تكون فى غيره من البشر .

فهو منبع سعادة لكل من يقتربون منه .

* * *

وتظهر المحبة فى الأفعال أكثر منها فى الأقوال .

ومثل ذلك حب الله وحب القريب ، فإنهما يظهران فى الأفعال أكثر منهما فى الأقوال .

« ليس من يقول : يا رب ، يا رب ، يدخل ملكوت السماوات ؛ بل من يعمل إرادة أبى الذى فى السماوات » (متى ٧ : ٢١) .

« إن أحبنى أحد يحفظ كلمتى ، وأبى يحبه ، وإليه نأتى ، وعنده نجعل مقامنا » (يو ١٤ : ٢٣) .

فحذار ممن يتكلمون كثيراً عن المحبة ، ويظهرون أنفسهم أمثلة لها . فليس للخباز أن يقول لرواد مخبزه : « أنتم إخوتى . فإنى أبيعكم عيشى لكى تعيشوا سعداء » فلو سمعنا خبازاً يتكلم بمثل هذا الكلام ، لوجب علينا أن نحذره .

فالمحبة تعبّر عن نفسها بالأفعال . ومن يمدح ما عنده من المحبة ، فهو إمّا معجب بنفسه ، لا يفتكر فى غيره ، وإما مخاتل يحاول أن يكسب ثقة الآخرين ، لمنفعته :

« احذروا من الأنبياء الكذبة ، الذين يأتونكم بثياب الحملان ، وهم فى الباطن ، ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٥ — ١٦) .

ولكن كلّ منا ، أيًّا كان عمله أو نوع حياته ، سواء أكان رئيس دولة أم حارس زراعة ، عالماً أم جاهلا ، سليماً أم سقيما ، غنيًّا أم فقيراً ، يكون مركز إشعاع وسعادة ، إذا كان الدافع لفكره وأفعاله المحبة ، وإذا كان يرى فى كل من يقابلهم إخوة وأبناءً لله مثله ، ويحبهم ، وهو فرح بكل ما فى قلبه من فرح الحب الإلهى .

* * *

ذلك يتطلب حياة داخلية فعّالة ، تتغير فيها نفسنا بالمسيح تغيراً كاملاً .

فلا يكفى أن نختار لنا عملاً من الأعمال ننفع به إخوتنا ؛ بل ينبغى أن يدفعنا ، كل حين ، إلى خدمتهم ، افتكارنا فى أنهم إخوتنا . فإن فينا ألف مطمع وألف ضعف وتعلق بنفوسنا ، مما لا يسهل اقتلاعه منها سريعاً . ولا بد لمحبتنا أن تتغذّى من مثل المسيح ، ومن الحياة التى تبثها فينا الأسرار المقدسة .

ثم لا يكفى أن نفهم أن البشر إخوتنا ، بل ينبغى أن تنتشر هذه

الأخوة فى روحنا حتى يصبح كل ما يجول فى خلدنا أخويًّا . فليس الإدراك العقلى إلا بداية . وإدراك حقيقة من الحقائق لا يغيّر الحياة ، تلقائيًّا ؛ فإن الشهوة قد تحول ما بين العقل والحقيقة ... فإن كنا متشبعين من الكبرياء ومن حب الذات ، وكانت الأهواء الحسية لا تزال تفقدنا السيطرة على أفكارنا وأفعالنا ، فكيف يمكننا أن نرى فى جميع الناس إخواناً لنا ؟

وكل نوع من أنواع الكبرياء ، فرديًّا كان أو جماعيًّا يخنق فينا روح الحب الأخوى . فمن قال أخاً ، قال شبيهاً ومساوياً . فنحن إخوة ، لأننا بنو أب واحد ، بنو أبينا الذى فى السماوات . ونحن مصهورون فى حبه . فإذا زعمت أنى فوق الباقين ، أو أن أسرتى أو أمتى فوق الآخرين ، فكيف تكون عاطفتى أخوية حقًّا نحو الجميع ؟ إن أخوّتنا فى المسيح هى أعلى من كل تمييز بشرى .

وهذا يقتضى حياة اتحاد صميم بيسوع ، تسنده نعمته بواسطة الأسرار ، ويعضده روحه بالتأمل فى كلامه وحياته .

* * *

والذين يهتمون من المسيحيين بأن يُحيوا فيهم هذه الروح الأخوية ليسوا كثيرين .

والذين يُدعون مسيحيين طيّبين ، فإنهم يكتفون ، غالباً ، بأن يقصدوا قصداً عامًّا أن يخدموا الله والقريب ؛ ثم لا يفكرون فى ذلك ،

متى دعت الحاجة ، لأن نفسهم خالية من الحب الأخوى المحيي الذى يدفعهم إلى العمل . يصير الشاب طبيباً ، وفى نفسه رغبة أن يصنع الخير ، ولكنه لا يلبث أن تشغله هموم أخرى ، كاكتساب المال ، وحياة الرفاه . فقد يكون فى منتهى النزاهة والغيرة على مرضاه ، بدون أن يعرف الحياة الأخوية والحب المسيحى الذى يريه فى الغير أخاه .

إن بعض المهن معدّة بذاتها لنفع الغير . فالطبيب ، والممرضة ، ورجل الدولة ، والمدير العام ، والعمدة ؛ جميع هؤلاء يعلنون أنهم يعملون للمصلحة العامة . وأكثرهم مخلصون ، ويريدون أن ينفذوا ما يقولون ، ولكنهم يعجزون عن تحقيق ما يريدون ، لأنهم مشغولون بذاتهم ، معجبون بنفسهم ، لا يبادرون إلى خدمة الغير بمحبة خالصة . فيجب أن تكون الشجرة صالحة حتى تأتى بثمار صالحة ؛ وصلاح الشجرة فى أصولها ، فيما لا يراه الناس ، كما أن صلاح الإنسان فيما لا تراه العيون : « إن الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح . . . ومن فيض ما فى القلب يتكلم الفم » (لوقا ٦ : ٤٥) « ومن القلب تخرج الأفكار الشريرة » (متى ١٥ : ١٩) .

فإذا كانت هذه حال من استعدوا لخدمة الغير ، فما عسانا ننتظر من الآخرين ؟ فالناس لا يزرعون ويتاجرون لخدمة الغير .

* * *

متى فكرنا فى ملايين الناس ممن ندعوهم مسيحيين ، نراهم لا تخطر

ببال أكثرهم دعوة الرب : « من أراد أن يكون لى تلميذاً . . . » فيسوع يكرر النداء . وهم لا يكترثون ؛ إنهم معمّدون ، وكثيرون من بينهم يمارسون ؛ ولكنهم لا يختلفون عمن لا يمارسون . « فإنكم إن أحببتم من يحبكم ، فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أنفسهم يفعلون ذلك ؟ وإن لم تسلّموا إلا على إخوانكم فقط ؛ فأى عمل خارق تصنعون ؟ أوليس الوثنيون أنفسهم يفعلون ذلك ؟ فأنتم ، إذن ، كونوا كاملين كما أن أباكم السماوى هو كامل » (متى ٥ : ٤٦ — ٤٨) .

فهؤلاء المسيحيون لا يحبون إلا من يحبهم ، ولا يسلّمون إلا على إخوانهم ، ولا يرغبون ، بأى وجه من الوجوه ، أن يكونوا كاملين .

فلندعهم ، الآن ، إلى حين ، ولننظر فيمن يريدون أن يلبوا دعوة يسوع القائل : « من أراد أن يكون لى تلميذاً . . . من أراد أن يتبعنى » .

ما كان هؤلاء قط كثيرين . وحسبنا أن نفتح رسائل الرسل فنرى أنهم كانوا قليلين فى الكنيسة الأولى . إنهم ملح الأرض . ونور العالم ، والخميرة التى خلطتها امرأة فى ثلاثة أكيال من الدقيق . . . هذا هو فعلهم . فلا ننتظرن أن يصبح جميع الناس ، ولا عدد كبير منهم تلاميذ . ولا شك أن يسوع نفسه لا ينتظر ذلك منهم ؛ فهذا أمر لم يحصل فى الماضى ، وما من دليل على أن يحصل فى المستقبل . . .

* * *

لمّا تنصرت أوربا الغربية ، فكر بعضهم فى إنشاء جامعة نصرانية

تستوحي دستورها من المسيحية . فأخفق المشروع ؛ غير أن كثيرين ما برحوا يحلمون به . وهو أمر لا يمكن تحقيقه ، ما لم يكن من يقومون به تلاميذ « من أراد أن يكون لى تلميذاً . . . » فجامعة مسيحية تتألف من معمدين غير صالحين لا تكون أهلاً لأن تسمّى مسيحية .

فالكنيسة ، باسم المسيح ، تعلّم احترام العدالة . فإن يكن المكلفون بإقامة العدل ظلاّماً ، في داخلهم ، يخالفون الشريعة ، ويسلكون بخلاف ما يظهرون من الاحترام للكنيسة ، وبخلاف ما ينادون به من أنهم مسيحيون ، فإنهم يجعلون الكنيسة أمام الناس متواطئة معهم في ظلمهم .

قد شاهدت الدنيا ملوكاً قديسين كانوا تلاميذ حقيقيين وحاولوا أن يجعلوا ممالكهم مسيحية ؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا خواصهم وأعوانهم مسيحيين مثلهم ولا جميع شعوبهم .

إن المسيح يطلب من المسيحي ألا يهتم بأمور الأرض ، حتى ولا بمملكة تكون لخدمة المسيح .

فملكوت الله في داخلنا . هو مملكة نفوس ؛ فإذا حصرنا ملكوت الله في أنظمة بشرية ، أفسدناه ، لأن الاهتمام بالمنظورات يحول دون الافتكار في الإلهيات .

وما زالت الكنيسة على ممر الأجيال تكافح الماديات ، لتحفظ المكانة الأولى ، بين أبنائها ، للروحيات . وإذا كانت هي مجتمعاً منظوراً ،

فما ذلك إلا حفظاً للإلهى فيها غير المنظور ، لأن مملكة النفوس تحتاج إلى دعامة حسية. ولهذا صار الكلمة بشراً ولزم أن تواصل الكنيسة عمله بشرياً.

أما الجامعة المسيحية الزمنية فشىء آخر . والرغبة فيها ، وإن تكن عن كرم فى النفس، يصحبها شىء من السذاجة — أن تخدم المسيح! — رغبة ساذجة ، لأن من يفكرون فيها لم يحسبوا حساباً لما تكلف الناس من الجهود حتى يؤلفوا جامعة مثلها . وكأنهم لا يكتفون بمملكة غير أرضية تضم جميع المسيحيين . فهم يتمنون أن تكون مملكة الله على الأرض محسوسة وملموسة . وهذه فكرة تشبه ما كانت عليه فكرة اليهود فى مملكة المسيح ، وإن اختلفتا روحياً . لأن اليهود كانوا ينتظرون مملكة غنى وقوة تسلطهم على جميع الشعوب .

هذا الافتكار فى مملكة أرضية تحل محل مملكة الله يدل على ما بين تصور البشر ومملكة غير أرضية من البعد الشاسع . فالإنسان مخلوق مادى يظل محتاجاً إلى التفكير فى أمور مادية ، لأنه يرى الأشياء المادية وحدها حقيقية . أما ما يقدمه لنا يسوع فهو فوق قدرة البشر ، لأنه إلهى ؛ ولا يبلغ إلى الملكوت الإلهى سوى القلوب النقية الخلية من غبار المادة .

لذلك نرى يسوع يعارض كل المعارضة من يحاولون أن يشغلوه فى المسائل الأرضية والزمنية . وقد نظنه أحياناً عنيفاً كما فعل يوم نهر ذاك المسكين حين طلب منه أن يقول لأخيه أن يقاسمه الميراث . ولكن متى تأملنا التاريخ المسيحى ، نتساءل ، أما كان ذلك العنف خفيفاً ؟

فإن المسيحيين ما كادوا ينتعشون حتى عادوا إلى فكرة مملكة زمنية ، وجرّوا الكنيسة معهم فى أوحال هذه المملكة وأشركوها فى أنظمة بشرية وأساليب سياسية . ولا يزال بعض المسيحيين حتى الآن يعتقدون أن الكنيسة عندها من الكفاية ما تستطيع أن تحل به المشاكل الاجتماعية .

* * *

ليس المقصود إنشاء مملكة إلهية على الأرض ، ولكن المقصود أن يكون المسيحى نوراً وخميرة .

فالمسيحى ليس من العالم ، بل هو فى العالم ، وليس ينعزل عن العالم . « لا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال » (متى ٥ : ١٥) وما نفع الخميرة ، إن لم توضع فى العجين فيختمر ؟

المسيحى يشرك من حوله بما عنده من الحب بحسب دعوته . فقد رأينا يسوع لا ينكر مهنة من المهن ؛ ونرى القديس بولس يوصى الكورنثيين أن يظلوا على ما هم عليه : « أيها الإخوة ، ليستمرّ كل واحد أمام الله على ما دعى فيه » (كور أولى ٧ : ٢٤) .

فإذا كان المسيحى ملكاً ، كان خير الملوك ؛ وإن كان قاضياً ، كان أفضل القضاة ، وإن كان فلاحاً أو عاملاً ، كان خير الفلاحين وخير العمال . وظل فى حياته الخاصة والعامة مفعم القلب من حب إخوته بالمسيح . وطالما بقى فى العالم مسيحيون مثل هؤلاء ، ينسع ملكوت الله ، هذا الملكوت غير المنظور الذى بيننا وفى نفوس من يسمعون ليسوع ويتكرسون من أجل ملكوته .

الفصل الثامن

الزواج المسيحى

للإنسان فى علاقاته الإنسانية بيئتان ، البيئة العائلية المحدودة والبيئة الاجتماعية . فالمحبة تطوّر علاقاته مع المجتمع كما تطورها فى الأسرة . ويمكن الأسرة أن تتطور بالمحبة أكثر من المجتمع ؛ لأن الأسرة مؤسسة على سرّ ، فى حين لا سرّ يرتب العلاقات الاجتماعية . وقد جعل يسوع الزواج سرًّا لما له من الأهمية ولما يترتب على رسمه من النتائج .

فالأسرار علامات حسية سنّها السيد المسيح لتشير إلى النعمة وتمنحها . فبالنعمة يحضر الله فينا ، ويتحد بنا ، ويشركنا فى حياته الإلهية . وهكذا سر الزواج يمنح الرجل والمرأة الحياة الإلهية وينميها فى نفسهما لكمال الاتحاد بينهما .

وهذا السر لا مثيل له فى الديانات كافة ، ولا فى المسيحية نفسها . فهو فى الأصل رسم طبيعى فى الجنس البشرى قد رفعه المسيح إلى ما فوق الطبيعة . وهو الرسم الطبيعى الوحيد الذى يتدخل الله فيه مباشرة بهذا الشكل ، فلا عجب بعد ذلك أن تكون الأسرة بين كل الرسوم الطبيعية هى التى حولتها المسيحية تحويلاً عميقاً .

* * *

ينتج مما سبق أن الزواج يقدس النفوس ، وأن المسيح رأى فيه وسيلة إلى التقديس . وبما أنه الحالة التي يعيش فيها معظم الناس ، وجب أن يرى فيه يسوع حالة تقديس عادية للشخص البشري ، فرفعه إلى درجة السرّ .

وإذا كان يسوع قد قدّم حالة العزوبة لما فيها من الانقطاع إلى خدمة الله ، فالزواج ما برح سبيل قداسة أيضاً . ودعوة المسيحي إلى الزواج أو العزوبة هي دعوة إلهية إلى القداسة ؛ تزوج المسيحي أم لم يتزوج . وإذا كان يسوع قد رفع الزواج إلى درجة سر فالكي يدل على ما للاتحاد الزوجي من الأهمية الكبرى في حياة الجنس البشري .

والقديس بولس يدعو المؤمنين جميعاً « قدّيسي كنيسة الله » لأن كل مسيحي مدعو إلى القداسة في حب الآب بالابن والروح القدس .

* * *

قد يظهر لنا ذلك ، أول الأمر ، غامضاً ؛ وقد يعدّه البعض متناقضاً .

وهل في تعليم المسيح شيء لا يبدو أول أمره غامضاً بل متناقضاً ؟

لقد كان الحب البشري دائماً مقسماً بين أسمى المثالية وأحط الشهوات الدنيئة . ولو كان الزواج إشباع شهوة بدنية وطلب متعة مادية ، لكان والحب الإلهي على طرفي نقيض . ولكنّ في الحب البشري شيئاً آخر ، وقد كان فيه دائماً شيء آخر ، فيه اندفاع نحو الجمال ، ونزوع إلى الكمال . هو اندفاع يلتمس من خلال المحبوب شيئاً غير محدود . وحسبنا في ذلك أقوال الشعراء في الحب عند كل الأمم — فمنذ الملاحم

البدائية — نرى ما يعانيه العشاق من المشاق وما يصبرون عليه من الآلام في الحب . وجل أمانيّهم ممن يحبون نظرة أو ابتسامة . فينبغي أن نستنتج من ذلك أن في أبسط الحب البشرى شيئاً آخر غير الشهوة الجسدية ، وأن ما يحتمله العاشق من التضحيات لفوق قيمة الشخص البشرى ؛ إذ يظهر له المحبوب كأنه الواحد الفرد لا إنسان عادى ، يرى من خلاله المطلق متحداً به ، ولا يرى المطلق بهذا الشكل إلا في المحبوب .

لو لم يكن في الحب إلا الجسد البشرى ، لكان لروميو أن يحب خمسين بنتاً عدا جوليت ؛ ولكان لجوليت أن تحب خمسين شاباً غير روميو — ولا يقال الوهم والخيال — فإن مأساة روميو وجوليت مأساة صحيحة تتجدد كل يوم ؛ ولهذا كان لها هذا الصدى العميق في الضمير الإنساني. فالحب يبلور النفوس فترى في الحبيب الواحد الفرد ، حتى لتعزو إليه ما ليس بشرياً من الصفات — والواحد الفرد هو الله . فالحب يظهر الله من خلال الحبيب .

وجميع الآداب قد وجدت نغماً إلهيّاً في الحب ، ولكن أكثرها أساء التعبير عنه ، إلا من استمعوا إلى المسيح فأحكموا التكلم عن الله .

عندما يجعل المسيح الزواج وسيلة إلى حياة إلهية ، يضمن فيه هذه النزعة الأساسية التي تشرف الحب ، ويدافع عنها حينما يجعل من اتحاد الحب البشرى اتحاد حب إلهى . فيغمر الحب الإلهى الحب البشرى ، حتى ليستطيع الحبيب أن يرى في حبيبته ، بكل صواب ، ابتسامة الله .

* * *

لم يذكر الإنجيليون شيئاً عامـًا من أقوال يسوع في الزواج ؛ ولكن التقليد المسيحي لم ينس أنهم خصوا بالذكر عرساً شهده وصنع فيه أعجوبته الأولى ؛ إذ حوّل الماء خمراً جيدة ، ليزيد من بهجة العيد (يو ٢ : ١ — ١١) .

وفي مثل العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات ، يشبه نفسه بعريس . وهو تشبيه مألوف عنده : « هل يستطيع بنو العرس أن يحدّوا ، ما دام العريس معهم » ؟ (متى ٩ : ١٥) .

وفي هذا كان القديس بولس يفكر ، حين كتب في رسالته إلى الأفسسيين (٥ : ٢١ — ٣٣) يشبه الزواج باتحاد المسيح والكنيسة :

« فأنتنّ ، أيتها النساء ، اخضعن لرجالكن كما للرب . لأن الرجل هو رأس المرأة ، كما أن المسيح هو رأس الكنيسة ، التي هي جسده وهو مخلصها ؛ فكما تخضع الكنيسة للمسيح ، كذلك فلتخضع النساء لرجالهن في كل شيء .

« وأنتم ، أيها الرجال ، أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة . لقد بذل نفسه لأجلها . . . فكذلك ، يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم الخاصة ؛ من أحب امرأته ، أحب نفسه . فإنه ما من أحد أبغض قط جسده الخاص ؛ بل إنما يغذّيه ، ويعنى به ، كما يفعل المسيح بالكنيسة » .

فالقديس بولس يبين وسم الزواج المقدس ، بتقريبه من اتحاد

المسيح بالكنيسة . وإذا وجب على الزوجين أن يكون عند كل منهما للآخر ما عند المسيح للكنيسة كان اتحادهما ، ولا شك ، مقدساً مثال القداسة الكاملة ، وفوق اتحاد اثنين لا يطلبان فى الزواج إلا سعادة بشرية .

* * *

يقوم سر الزواج بأن يجد كلٌ من الرجل والمرأة ، فى الآخر ما يحقق مثال الحب الإلهى ، الذى يدعوهما إليه الله تعالى . فموضوع الزواج المسيحى ، إذن ، هو تفتح الحب الإلهى فى الحب البشرى وبه ، بقبول الزوجين السر المشترك — وهو وحده سر مشترك ، لا يمكن أن يقبله شخص واحد ما لم يتحد بآخر — ويصبح الحب البشرى الذى يجمع بين الرجل والمرأة حبًّا إلهيًّا ، بواسطة السر — حبًّا يكون الله فيه طرفاً فى الحب البشرى نفسه .

فالزواج المسيحى ، فى جوهره ، عمل روحى . ومن أراد أن يكون تلميذاً للمسيح يتزوج لأنه يؤمن بأنه يحقق فى الزواج ملء الحب الإلهى الذى يدعوه إليه الرب . وهو يحقق هذه الدعوة مع زوجة كما تحققها هى مع زوج ، فيكون الحب حبًّا بين اثنين ، حبًّا واحداً فى شخصين ، يجعل حياتهما المقترنة عمل حب واحد ، حب الزوجين للآب بالمسيح ، وحب كل منهما الآخر ينصهر فى وحدة الحب الإلهى الذى يستولى عليهما معاً ، دفعة واحدة . وهذا مايفسر وحدة السرّ فى القرينين .

أما حالات الزواج الطبيعية فلا تتغير بسبب ما تقدم . فحب المسيح لا يغيّر الطبيعة بل يرفعها فوق ذاتها ويمزجها فى الحب الإلهى. فتبقى أحوال الحياة الإنسانية على ما هى . والمسيحى ، أميراً كان أم فلاحاً ، يظل كما كان . فالمجتمع المؤلف من مسيحيين لا غير يحتاج كغيره إلى حكام وإلى فلاحين . والمسيحى مثل سواه يحتاج إلى الطعام والشراب ويجد فيهما ما وضعه الله فيهما من اللذة . ومع ذلك فكل شىء قد تحوّل ، لأن حب الآب يغير كل شىء .

والزواج نفسه كذلك . فسعادة الزواج البشرية ، وما يجذب الشاب إلى الشابة ، وما توليهما لذة اتحادهما وثمرة حبهما . . . كل هذا يبقى ، ولكنه قد تغير .

« إذا أكلتم أو شربتم ، ومهما صنعتم ، فاصنعوا كل شىء تمجيداً لله » (١ قرنثيين ١٠ : ٢١) باسم يسوع ربنا ، شاكرين لله أبينا » (كولسى ١٣ : ١٧) .

* * *

يوجز القديس أغسطينوس خيرات الزواج بثلاث كلمات : الإيمان ، والأولاد ، والسرّ .

فالإيمان الزواجى هو أمانة وحب ؛ والأولاد ، ثمار وتكريس للحب ؛ هذه خيرات الزواج الطبيعية . أمّا السر فإنه يطوّر هذه الخيرات ولا يغيرها .

فيصبح الزواج المسيحى عمل اثنين قد حققا حب المسيح . وعندما

يظهر الزوجان معاً بين الناس ، متحدين زواجياً ، وعائلياً ، يقدمان للعالم ، بحبهما المتبادل ، مشهد الحب المسيحى ، ويتقدمان بهذا الحب الذى وحدهما ، لكى يحبا به جميع الناس إخوتهما .

ويكون الأولاد العمل الخالص القداسة ؛ فقد ولدوا لا ليخلدوا والديهم بل خلقوا بشراً يقدمهم والدوهم للمسيح لكى يمجدوا الله .

وإذا كان ما فينا من حب الله إنما هو فينا لكى نحب إخوتنا ، فكيف نقدر عظمة من لا يقتصرون على ذلك ، بل يضعون فى العالم ، بعملهم ، خلائق منهم ، بشراً معدين للحب ومدعوين إلى الحب ، وإلى أن يجدوا من يحبهم ؟ وكيف نبين سمو العمل الذى يؤدى إلى إبداع إنسان جديد يقدر أن يحب الله ويقدر الله أن يحب به إنساناً جديداً .

* * *

الزواج المسيحى هو عمل حياة كاملة ، فائقة الطبيعة . فالزوجان مدعوان إلى حب يغمره الحب الإلهى . ومتى اتحد الزوجان على هذا الحب ، وبذلا جهدهما ليرتفعا إلى الكمال ، تكن عائلتهما منارة أمام الناس ، وتزداد إشراقاً بما يقدمه المجموع لكل فرد من أفرادها .

هذا التصور فى الزواج يتفق كل الاتفاق وما يطلبه يسوع من تلاميذه ، ولكنه ليس من السهل تحقيقه . فقد سبق أن قلنا إن التلاميذ الحقيقيين غير كثيرين . والأزواج المسيحيون لا يمكن أن يكونوا إلا بين التلاميذ . وكل ما قلناه عن التلاميذ يصح فى الأزواج . فالعالم يسيء الظن

بالأزواج المسيحيين ، لأنهم يطلبون فى الزواج درة ثمينة لن تبرح خفية على العالم ؛ شيئاً ثميناً لا يستطيع أن يتصوره . لا يستطيع العالم أن يفهم أن لذات الجسد وطلب الرفاهية فى الزواج لا تشغل ما ينسبون إليها من المكانة ، فيما بين خيرات الزواج .

عرف القديس بولس أن الكورنثيين غير سالكين فى كمال الحياة الزوجية . فكتب إليهم : « إن غير المتزوج يهتم بما للرب ، كيف يرضى الرب ؛ وأما المتزوج فيهتم بما للعالم ، كيف يرضى امرأته ؛ فهو متجزئ . وكذلك المرأة الغير المتزوجة والعذراء تهتمان بما للرب ، لتكونا مقدستين جسداً ونفساً ؛ وأما المتزوجة فتهتم بما للعالم ، كيف ترضى رجلها » (١ كور ٧ : ٣٢ — ٣٤)..

لا شك أن ما يذكره القديس بولس عن الكورنثيين يتفق وما هو جار فى العالم ؛ ولا شك أيضاً أن الزواج يربط الرجل والمرأة فيما بينهما ، وليس بينهما فحسب ، بل بينهما وبين العالم ، ويخلق لهما كثيراً من الضرورات المادية والاجتماعية مما يعرّض نفسهما إلى الأخطار . ثم إن طلب السعادة البشرية قد يضعف الحياة الروحية ؛ فسعادة الأرض لا تميل بالإنسان إلى الالتفات إلى السماء . وحادث الشاب الغنى قد يتجدد فى كل زواج سعيد ، لأن السعادة الروحية أعظم غنى فى هذا العالم .

ومن هذا نفهم تفضيل يسوع لحياة العزوبة ، وإن لم يتردد فى جعل الزواج سرًّا ، لأن الزواج فى ذاته سبيل إلى القداسة ؛ ومن يقبلونه بهذه

الروح يقومون بعمل مقدس ».

ثم لا ننس أن يسوع لم يتمادَ في إيثار العزوبة ، ولا القديس بولس ، ولا ذكر الإنجيليون إلا كلمة من هذا القبيل نطق بها يسوع ، وكان قد أنكر الطلاق . فصاح التلاميذ مذعورين من تلك الشدة وقالوا : « إن كانت هذه حال الرجل مع امرأته ، فالأولى له أن لا يتزوج » . فقال لهم يسوع : « ليس الجميع يفهمون هذا الكلام ، بل أولئك الذين أوتوا أن يفهموا وحدهم . فإن من الخصية من ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ومنهم من خصاهم الناس ، ومنهم من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات . فمن استطاع أن يفهم فليفهم » (متى ١٩ : ١٠ — ١٢) .

فنحن نرى يسوع هنا يقدّم العزوبة لمن يريد أن يتقيد بها « من أجل ملكوت السماوات » كدعوة خاصة . فما أنكر الزواج ولا احتقره ولا أتبع كلامه بالصيغة المعهودة : « من أراد أن يكون لي تلميذاً . . . »

ولا القديس بولس أراد أن يعلم تعليماً قاطعاً في هذا الأمر ، كما جاء في النص الآتي من رسالته إلى الكورنثيين : « أمّا من جهة ما كتبتم به إليّ ، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ، ولكن ، تلافياً للفجور ، فلتكن لكل رجل امرأته ، وليكن لكل امرأة رجلها . ليقضِ الرجل امرأته حقها ، وكذلك المرأة أيضاً رجلها . إن المرأة لا تتسلط على جسدها ، بل الرجل ؛ وكذلك الرجل أيضاً لا يتسلط على جسده ، بل المرأة . لا يمنع أحدكما الآخر عن ذاته ، ما لم يكن عن موافقة ، وإلى حين ، لأجل التفرغ

للصلاة ، ثم عودا إلى ما كنتما عليه ، لئلا يجربكما إبليس ، لعدم عفتكما . وإنما أقول ذلك على سبيل الإباحة لا على سبيل الأمر . فإنى أودّ لو يكون جميع الناس مثلى . غير أن كل واحد له من الله موهبة خاصة ، فللواحد هذه ، وللآخر تلك » (كور أولى ٧ : ١ — ٨) .

* * *

الزواج ، إذن ، طريق قداسة ، وهو لذلك طريق وعر .

ولا بدّ للزواج المسيحى من الحياة الداخلية . فعلى الشاب والشابة ، تحقيقاً لحياتهما المسيحية فى الزواج ، أن يضعا نصب أعينهما ، واقع اتحادهما الروحى ، حتى يستعدا له ، قبل الزواج ، ويقدما عليه إقدام مسيحيين .

وسرّ الزواج بذار يقبله الزوجان عندما يعقدان قرانهما ، فيحيي فيهما ميلاً إلى أن يعيشا على مثال حياة المسيح . ولكن هذا البذار لا ينمو إلا إذا تعهداه بالمواظبة على قبول الأسرار وبحياة داخلية صميمة .

وعلى الزوجين أن يفهما أن الكمال المسيحى كله وما يصحبه من التكاليف والحب يجب أن يحققاه معاً ، يداً بيد . ولابد لذلك من أن يكونا كلاهما مسيحيين من طراز واحد واشتياق واحد إلى أن يلبيا دعوة المسيح . فإن يكن أحدهما خالياً من هذا الاشتياق ، لم تتحقق قداسة الزواج الخاصة وأصبح الزواج تجربة ومحنة لمن يريد منهما أن يتبع المسيح . أما كونه تجربة ، فلأن الزوج العالمى يحاول أن يجر الآخر إلى طريقه ،

وطريق العالم أوسع وأسهل . وأما كونه محنة ، فلأن الزوج المسيحى لا يعدم أن يجد فى مصاعبه سبيلاً إلى المقاومة ، وإلى إظهار تعلقه بالمسيح .

فالزوج المسيحى الذى لا يجد فى قرينه صدى لرغباته الروحية ، يمكنه بل يجب عليه أن يتجه وحده إلى القداسة الشخصية التى يدعو إليها يسوع بجميع تلاميذه ، فيجد ، ولا شك ، فى سر الزواج ، وسائل فائقة الطبيعة لكى يمارس فى بيئته حياة مقدسة ، وإن لم يقدر أن يبلغ إلى ملء القداسة الخاصة بالزواج ، لأنها تقتضى اتحاد الزوجين روحياً ومادياً .

وبخلاف ذلك ، إذا تحقق الاتحاد ، وتعاون الزوجان فإنهما ينجبان الأولاد بالفرح ، ويقدمان للحب الإلهى نفوساً عامرة بالقداسة .

الفصل التاسع

الوعد الإلهى

الحياة المسيحية هى من الجمال بحيث لا يتصور من فهمها جمالا يحاكيها . فيتفتح المسيحى فيها تفتحاً كاملاً ، ويرى كل ما كان يظهر له فى كلام المسيح عن التخلى صعباً قد زال ، فى هذا الانسجام ، فيتملكه الفرح حتى يبلغ به إلى أن يقول : « عمّ تخلّيت ؟ » وبدلاً من أن يفتخر بشجاعته ، يشعر بالخجل من سعادته .

ولكن تمرّ به أوقات يظن فيها ، ولا سيما فى بدء تحوّله ، أن المثال المسيحى محال ، وأن هذه الطهارة ، وهذا الانسجام بين أفكارنا جميعاً ورغباتنا فى الحب الإلهى ، مما يتجاوز حدود شواغلنا اليومية . فكل شىء فينا مادّى ، حرج ومبتذل يشعرنا أننا أعجز من أن نرتفع إلى قمة هذه الطهارة . فنحن فى سفح جبل عال ، نعلم يقيناً أن الهواء فوقه نقى ينعش النفس ، وأن الأفق فسيح ، والنور شفاف ، وأننا نكون على قمته ، وكأننا فى عالم آخر . غير أنه غال ، والمرتقى إليه صعب . فكيف نبلغ إليه وأقدامنا ثقيلة ، لاصقة فى ثرى السهل .

لكن يأتى يسوع ويؤمّن ما عندنا من الوسائل : لأنه يعلم عجزنا ،

ولا يخفى عنا رأيه فينا : « إنكم بدونى لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) ولكن الحياة التى يعرضها علينا — بل التى يأتينا بها — يمنحنا الوسائط لتحقيقها ، فيقول لنا : « تعالوا إلىّ أيها التعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم » .

لقد وعد . فهو يريحنا . وليس لنا إلا أن نأتى إليه فيروى عطشنا ، (يو ٧ : ٣٧) عطشنا إلى الطهارة ، وعطشنا إلى الكمال .

فلنمض إليه . إن درب الجبل أمامنا صعود ؛ « ما أحرج الطريق التى تؤدى إلى الحياة » (متى ٧ : ١٤) فلن نقطعها أبداً وحدنا . ولكن المعلم لا ينتظر إلا لفتة من حسن إرادتنا حتى يمدّ يده إلينا : « اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزاد لكم » (لوقا ١٢ : ٣١) .

تزاد لكم ، لم يقل تنالونها بكدكم : بل قال : تزاد لكم .

* * *

فيسوع يرسل إلينا روحه . وقد قال لرسله فى خطابه بعد العشاء وهو يودّعهم : « وأنا أسأل الآب فيعطيكم محامياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ؛ أما أنتم فتعرفونه ، لأنه يقيم معكم ويكون فيكم ... وأما المحامى ، الروح القدس ، الذى سيرسله الآب باسمى ، فهو الذى يعلمكم كل شىء ، ويذكّركم جميع ما قلت لكم . . . ويرشدكم إلى الحقيقة كلها » (يو ١٤ : ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ و ١٦ : ١٣) .

ويسوع يؤمّننا ، فينبغى ألا نخاف من ضعفنا ، لأنه يكون هو قوتنا . وإذا صدمتنا مصاعب فوق طاقتنا ، كان روحه فينا . « متى أسلموكم فلا تهتموا لما تقولونه وكيف تقولونه . إن ما ينبغى أن تقولوه ، تعطونه فى تلك الساعة ؛ فإنكم لستم أنتم المتكلمين ، بل روح أبيكم هو المتكلم فيكم » (متى ١٠ : ١٩ — ٢٠) .

* * *

أما يغنينا هذا ؟ فهوذا يسوع يذهب بنا إلى أبعد ما يمكن حتى نفهم . . . فهو يقدم لنا ذاته طعاماً : « أنا خبز الحياة ؛ من يأتى إلى فلن يجوع » (يو ٦ : ٣٥) هو خبز حقيقى ، غذاء يؤكل « جسدى مأكل حقيقى ودمى مشرب ؛ من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىّ وأنا فيه . . . من يأكل جسدى ويشرب دمى فله الحياة الأبدية » (يو ٦ : ٥٥ — ٥٦) .

« ذلك شك لليهود وجهالة للأمم » وقد بلغ الشك من السامعين حتى حمل كثيرين من التلاميذ على الانصراف (يو ٦ : ٦٠) .

ذلك جنون . . . « ولكنه عند المدعوين قوة الله وحكمته » .

فإذا كان يحبنا إلى هذا الحد ، ويعدنا كل شىء ، وإذا كان ربّ الحقيقة وقادراً على كل شىء ، فممّ نخاف ؟ لقد غلب العالم ؛ وهو يأتى عندنا مع الآب ، ويرسل إلينا الروح ؛ وحياته تسرى فى كياننا ، وروحه يحيينا . لا شك أننا خلائق ضعيفة ، وسنبقى ضعفاء . ولكن نفسنا قد

تغيرت ، وأصبح فعلنا فعلاً إلهيًّا . فكيف نخاف أن نسير فى الطريق ولا نبلغ إلى الغاية ؟

« إنى أستطيع كل شىء فى الذى يقوينى » (فيلبى ٤ : ١٣) وكيف لا نفرح ، ونكون فى سلام ، « سلام الله الذى يفوق كل فهم » (فيلبى ٤ : ٧) .

وإذا زللت كل يوم ، ووهنت روحى ، فإن فهم الأمور الإلهية هذا الخبز الحى يحيينى .

أنا ضعيف ، ولا ريب ، ولكنى لا أتوقف فى ضعفى ، ما دام عندى حب الآب ، وحضور الروح ، وهذا الخبز ، وعندى الصليب . وهذا كله واحد ، حب واحد دائم منذ الأزل ، وما دام الله محبة (١ يو ٤ : ٨) فى وحدته التى لا توصف .

فالمسيحى يعترف بضعفه ، ويسير عالى الرأس ، لأنه يحمل فى ذاته وعد الله .

الفصل العاشر

رحمة الآب

لكنّ فينا اثنين : التلميذ والآخر .

فالآخر هو البائس ، الأعمى ، والأعرج المخلّع ، ومن لا يسعه إلا أن ينطرح على جانب الطريق ويصرخ : « يا رب اشفني » .

لسنا خلائق بسيطة . فنحن متقلبون ، بين يوم وآخر وبين صعود وهبوط . فبينا نرانا اليوم آمنين برؤيا الحقيقة إذا بنا غداً مترددون ومتعثرون .

نرى الملكوت جمالا كله ، ولكننا أمامه كالمخلّع على حصيره .

ونعلم حق العلم أن الحياة الإلهية هي الدرة الثمينة التي ينبغي أن نضحي في سبيل اقتنائها بكل شيء ، ولكن تمرّ بنا أوقات تغشّي فيها الخلائق كل رؤانا .

فقد يظهر هذا لنا مناقضاً لما مرّ بنا في الفصل السابق ، ولكن لا غرابة ، فنحن نناقض نفسنا بنفسنا . وما لنا إلا أن نطالع الإنجيل ، فنرى الرسل أنفسهم على شاكلتنا . نعم ، ليسوا كالعامّة ؛ فهم صورة الصفوة من الناس ، بكل نشاطهم ومللهم ، وسخائهم وتعلقهم بالدنيا ،

ومطامعهم الأرضية وإيمانهم بالمعلم ، وقلة فهمهم له ؛ وهم مع ذلك يتبعونه .

* * *

وعلى هذا ، فكل منا يصح عليه مثل الابن الشاطر ، ومثل وليمة العرس ، ومثل النعجة الضالة .

ومهما شئنا أن نعطي وأن نتخلى عن ذاتنا ، فما من أحد منا لا يسمع نداء الشهوات ويصغي إليه ، فيتراخى ويتواكل . لقد استدعنا إلى يسوع ، ونحن نريد أن نكون من تلاميذه ، ولكن ما يعرضه علينا رفيع سام هو قمة الجبل ؛ فلا نكاد نلمح صفاءه حتى نتقاعس ونبقى محلنا .

إننا نتعثر . وقد نسقط ، أو نلازم مكاننا . لا نفعل شيئاً ، كالمخلع أغبياء ، أو كالجثث وقد فاحت منا رائحة الخطيئة .

فنحن بحاجة إلى من يقول لنا إن الراعي الصالح يترك التسعة والتسعين خروفاً الهادئة ، ويمضي باحثاً عن الخروف الضال ، ونحن بحاجة أن نتذكر الرب ، والمخلع أمامه لا ينطق بكلمة ، ولا يطلب المغفرة ، وهو يقول له : « مغفورة لك خطاياك » ويشفيه ليعلم من حضر ومن غاب أن ابن البشر له على الأرض سلطان مغفرة الخطايا (مرقس ٢ : ٣ — ١٢) .

ولا يمكننا أن نثق بنفوسنا ، ألبتة ، بل يجب أن نعلم أننا نُدفع دفعاً إلى الوليمة ، العرج وعكازاتهم ، والعمى وعصيّهم ، والصمّ وسماعاتهم ، والمقعدون وعجلاتهم ، وكلنا ندفع دفعاً — فنحن ساحة أعاجيب ،

ومحكمة دائمة لا تنفضّ أبداً . وكل شيء يتم بهتاف الفرح على مائدة الحمل .

فأية دهشة لا تعترينا ، حين نفكّر أن الملكوت بكل بهائه إنما هو معدّ لنا ، وأننا نحن المعدّون لدخوله . وكيف نستطيع أن نقدّر حب الآب لنا ، عندما نعلم أننا نحن الذين يحبهم .

ولكن ، لا حاجة إلى التقدير ؛ وحسبنا أن نعلم . وإنّا لنعلم أنه مستعد أن يسامحنا فى سر التوبة ، متى هفونا .

* * *

ولا يُحرم من الدخول سوى من يظنون أنهم أعلم من المعلم بما عليهم أن يعملوا ، وسوى من يسرّهم أن يعجبوا بما فيهم من الفضائل .

« رجلان صعدا إلى الهيكل ليصليا ، أحدهما فرّيسى والآخر عشار . أما الفرّيسى ، فانتصب يصلى فى نفسه هكذا : اللهمّ ، إنى أشكرك ، لأنى لست كسائر الناس ، الخطفة الظلمة الفاسقين ؛ ولا مثل هذا العشّار . فإنى أصوم مرتين فى الأسبوع ، وأؤدى العشر عن جميع ما أقتنى . . . وأمّا العشار ، فأقام بعيداً ، ولم يجرؤ أن يرفع ناظريه إلى السماء ، بل كان يقرع صدره ، قائلاً : اللهمّ ، اغفر لى ، أنا الخاطئ . . . أقول لكم ، إن هذا الأخير نزل إلى بيته مبرراً دون ذاك ؛ لأن كل من يرفع نفسه يوضع ، ومن يضع نفسه يُرفع » (لوقا ١٨ : ١٠ — ١٤) .

لم يقل يسوع إن ما كان الفريسى يقوله باطل . فقد كان ممن ندعوهم

أفاضل الناس . ولكنه أنكر عليه صلاته .

* * *

الكنيسة عروس المسيح تقتفى آثار عريسها .

فتفتح الباب واسعاً لكل من يحبون الدخول ، حالما يعترفون بيسوع ويقبلون رسالته . فإن كانوا خطأة ، غفرت لهم ، وسكبت عليهم غزير النعم بذبيحتها وأسرارها . وهذه أقوال الرسل لدينا عن المسيحيين الأولين ؛ فقد كان بينهم خطأة كثيرون ، متى عرفنا ما كان يطلبه القديسان بولس ويعقوب منهم ، وما كانا يؤاخذانهم عليه ، نجد مسيحيي عصرنا دونهم ذنوباً وعيوباً .

فالكنيسة تقبل الزناة ، والسرّاق ، والقتلة ، على أن يتوبوا ؛ وتقبل معتادى الإثم ، حالما يعودون ، نادمين ، لا مرة ، ولا سبع مرات لا غير ، بل « سبعين مرة سبع مرات » (متى ١٨ : ٢٢) .

وتذهب الكنيسة إلى أبعد من ذلك ، فتضم إلى حضنها ، بالعماد ، أطفالاً لا يطلبون شيئاً ؛ وتسامح المنازعين ، وقد فقدوا السمع ، حتى لا يفقدوا أجر أية عاطفة صالحة يمكن أن تصدر منهم .

فهى عروس المسيح تأخذنا جميعاً فى حضنها وتضمنا بين ذراعيها ، كأننا نسعدها بقبول عطفها علينا وحبها لنا .

* * *

غير أن الكنيسة تكرر فى الوقت نفسه دعوتها : « من أراد أن يكون

لى تلميذاً . . . »

نكرر الدعوة ، والتلاميذ يأتون إليها ، من كل من تملكهم جمال الملكوت .

ولكن من هم التلاميذ ؟ ومن يسبر القلوب ؟ ليس التلاميذ من يقولون : نحن تلاميذ . فهؤلاء إنما هم فريسيون . فالتلاميذ هم من يتمنّون أن يكونوا تلاميذ ، ومن يبدون رغبتهم ليسوع ، معتمدين عليه ، وهم على يقين من قلة جدارتهم .

وتكرر الكنيسة تعليمها ، بلا انقطاع ، على كل من تستطيع أن تتصل بهم . فيذهب البذر الجيد مع الريح ؛ فإن وقع على الصخور أو على الرمال ، لم يأت بشيء ؛ وإن وقع على الأرض الجيدة ، نبت وأغل خمسين ، وستين ومائة .

نعم ، هناك القدّيسون . ولكن الكنيسة لا تعلن حكمها عليهم قبل انقضاء حياتهم . لأن الإنسان معرض للفساد كما هو قادر على الارتداد فى كل عمر ، فلا تقدر الكنيسة فى معركة الحياة إلا أن توجّه نداءها ، وتوزع نعمة الله أينما وجدت نفساً مستعدة لقبولها .

« يشبه ملكوت السماوات شبكة كبيرة ألقيت فى البحر فجمعت سمكاً من كل صنف . ولما امتلأت أطلعها الصيادون إلى الشاطئ ، ثم جلسوا وجمعوا الجيد فى أوعية ، وأما الردىء ، فرموا به خارجاً . كذلك يكون فى منتهى الدهر . يخرج الملائكة ، ويفصلون الأشرار من بين

الصديقين ويلقونهم فى أتون النار هناك يكون البكاء وصريف الأسنان »
(متى ١٣ : ٤٧–٥٠) .

فلن نبرح حتى ذلك الحين مختاطين فى الشبكة . ويسوع يدعونا ، فإذا لبينا دعوته قلبيًّا ، فقد لا يحس العالم بشيء ، ولكننا نصبح مركز حياة إلهية ، وأبونا الذى يرى فى الخفية يكافئنا .

الفصل الحادى عشر

انتصار المسيح

« ثقوا . إنى غلبت العالم » . وفى الغداة رفع يسوع على الصليب .

« ليس العبد أعظم من سيده . . . سوف يطردونكم من المجامع ؛ وتأتى ساعة يظن فيها من يميتونكم أنهم يقدمون ذبيحة مقبولة لله . وإنما يفعلون ذلك لأنهم لم يعرفونى ولا عرفوا أبى » .

« إنى غلبت العالم . . . يميتونكم . . . نيرى طيب وحملى خفيف . . . إنى مرسلكم مثل خراف بين الذئاب . . . » كل هذا يبدو متناقضاً . لابدّ له من رابط يسهّل فهمه .

* * *

« لقد أحبّ الله العالم حتى إنه بذل ابنه الواحد ، لكيلا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) .

فالمقصود الحياة الأبدية ، الحياة الأخرى . فيقتضينا نيل الملكوت أن نسير بدافع الحياة الأبدية لا بدافع السعادة الزمنية .

« الحق الحق أقول لكم ، إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله الحياة الأبدية ؛ ولا يخضع لدينونة ، لكنه قد انتقل من الموت إلى

الحياة » (يو ٥ : ٢٤) .

عندما يتكلم يسوع عن « الحياة » ، لا يقصد بكلامه هذه الحياة ، بل الحياة الأخرى . وعندما يبشر تلاميذه بالنصر لا يعني أيّ نصر أرضي إلا الانتصار على النفس ، الانتصار الذى يؤهلهم للتخلي عن كل شيء ، ويمكّنهم من الصبر على كل عذاب ، من أجل الملكوت . وإن هو إلا ملكوت السماوات .

« ليست مملكتي من هذا العالم » . إن يسوع لا يطلب نجاحاً في هذه الدنيا ، فهو يسعى إلى الإخفاق على الأرض ، ويعلم ذلك ويريده ، لأنه ينبغي أن تكون مملكته خالصة ، ليس فيها شيء أرضي ، فتكون كلها من الله ، ولا يمكن أحداً أن يرى فيها شيئاً غير ملكوت الله . ولو كان فيها شيء أرضي لتخلّلها الالتباس . فلا ننتظر العدالة ولا السعادة على الأرض ، فلن تنتظم الأمور إلا في آخر الأزمان ، حينما « يأتي ابن البشر في مجد أبيه ، مع ملائكته ، وعندئذ يجازي كل أحد بحسب أعماله » (متى ١٦ : ٢٧) .

* * *

فإذا راجعنا ، بهذه الروح ، ما في الإنجيل من النصوص على التخلي ظهر لنا على ضوء بجديد .

« أقول لكم أنتم أصدقائي ، لا تخافوا شيئاً من الذين يقتلون الجسد ، ولا سبيل لهم بعد أن يفعلوا أكثر ؛ بل أبين لكم ممن تخافون ، خافوا ممن

إذا قتل ، له قدرة أن يلقى فى جهنم ؛ أجل وأقول لكم ، من هذا خافوا . أليس خمسة عصافير تباع بفلسين ؟ ومع هذا ، فلا ينسى واحد منها أمام الله ؛ بل شعر رؤوسكم جميعه محصى ، فلا تخافوا ؛ فأنتم أفضل من عصافير كثيرة .

وأقول لكم ، إن كل من يعترف بى أمام الناس ، يعترف به ابن البشر قدام ملائكة الله ؛ ومن ينكرنى أمام الناس ، يُنكر أمام ملائكة الله » (لوقا ١٢ : ٤ — ٩) .

هذا النص اختارته الكنيسة ليتلى فى أحد قداسات الشهداء . ومغزاه واضح .

فليس للحياة أهمية كبرى حتى نخاف ممن لا يستطيعون شيئاً أكثر من أن يحرمونا منها .

ولكن هذا يسوء من يؤمنون بالحكمة البشرية القائلة : « الحياة أولاً » ، وبما يقوله آخرون : « لن نحيا إلا مرة واحدة » . وما يقول المريض : « خير لى أن أحيا معذباً من أن لا أحيا أبداً » . وهذا ما يقوله أكثر المسيحيين .

أمّا يسوع ، فالحياة عنده لا قيمة لها فى ذاتها . ومن يقولون : « لا نحيا إلا مرة واحدة » أو « خير لنا أن نحيا معذبين من أن لا نحيا أبداً » ، فهؤلاء إن كانوا يتكلمون عن انتباه ، فهم ينكرون ضمناً الحياة الحقيقية ، ويجحدون الإيمان المسيحى .

فالحياة الحقيقية عند يسوع ، والتي وحدها تستحق الاهتمام ، هي الحياة الأبدية . أما الحياة الحاضرة فهي إعداد للحياة الحقيقية ؛ وهي مهمة من هذا القبيل لاغير ، لأن الأبدية تتعلق بها . فليست الحياة على الأرض غاية بل هي سبيل ، قيمتها فيما تبلغ إليه من السعادة أو الشقاء .

ولا مبالغة إن قلنا ، قلّ من يعيش من المسيحيين في ترقّب هذه الأمور . وإلا فأين المستعدّون للاستشهاد إذا بدت بوادر الاضطهاد ؟

« أو ليس خمسة عصافير تباع بفلسين ؟ وواحد منها لا يُنسى أمام الآب . شعور رؤوسكم جميعها محصاة . . . » هذا لا يعني أن الله يحفظ لنا حياة الدنيا ، أو يبقينا فيها طويلا ، ويمتعنا بصحة جيدة ، وينجح ما نقوم به من المشاريع ، أو يعطينا الشمس والمطر عند احتياجنا إليهما . فحماية الله لا علاقة لها بهذه الأمور الأرضية . وقد اختارت الكنيسة هذا النص : « أليس خمسة عصافير تباع بفلسين . . » نص الثقة المطلقة بعناية الله في قداس الشهداء ، لكي تحتفي بتذكار من بذلوا حياتهم من أجل المسيح ، وقاسوا الآلام المبرّحة ، ولم ينقذهم الله — أي لم يصنع شيئاً لينقذ حياتهم على الأرض ، أو يخفف آلامهم .

على حين أنه يخلّصهم ؛ ويجعل موتهم نصراً مبيناً .

* * *

ليس لنا أن ننتظر من يسوع أي شيء على الأرض ، إلا الجلادة والفرح — الفرح الذي لا يوصف — فرح الحياة الداخلية . فنحن هنا

لكى نبرهن لله عن متانة خلقنا ؛ فالحياة محنة ، غاية وجودها ليست فيها . ويسوع لم يعدنا بسعادة أرضية ، بل يطلب منا أن نتخلى عن كل شىء ، وينذرنا باضطهادات كثيرة . فكلمته لا تتم إلا فى العالم الثانى .

وقد أوضح فكره صراحة فى مثل الزرع الجيد والزؤان قال : « يشبه ملكوت السماوات بإنسان زرع فى حقله زرعاً جيداً . وفيما الرجال نائمون ، جاء عدوه وزرع وسط الحنطة زؤاناً ومضى ، ولما نما النبات وعقد ثمراً ، حينئذ ظهر الزؤان أيضاً . فجاء عبيد رب البيت وقالوا له ، يا سيد ، أو لم تزرع فى حقلك زرعاً جيداً؟ فمن أين أتى الزؤان؟ فقال لهم ، إن إنساناً عدواً فعل هذا ؛ فقال له العبيد ، أتريد أن نذهب ونجمعه ؟ فقال : لا ، لئلا تقلعوا الحنطة مع الزؤان عندما تجمعونه . دعوهما ينبتان كلاهما معاً ، حتى الحصاد ، وفى أوان الحصاد أقول للحصادين ، اجمعوا أولاً الزؤان ، واربطوه حزماً ليحرق ، أما الحنطة فاجمعوها إلى أهرائى » (متى ١٣ : ٢٤ — ٣٠) .

فسأل التلاميذ يسوع أن يفسر لهم مثل زؤان الحقل فأجاب قائلاً : « الذى يزرع الزرع الجيد هو ابن البشر ، والحقل هو العالم ؛ والزرع الجيد بنو الملكوت ، والزؤان بنو الشرير ؛ والعدو الذى زرعه هو الشيطان ؛ والحصاد منتهى الدهر ؛ والحصادون هم الملائكة : فكما أن الزؤان يجمع ويحرق بالنار ، كذلك يكون فى منتهى الدهر ، يرسل ابن البشر ملائكته فيجمعون من مملكته كل المعاثر وفاعلى الإثم ، ويلقونهم فى أتون النار .

هناك يكون البكاء وصريف الأسنان . عندئذ يضيء الصديقون كالشمس في ملكوت أبيهم . من له أذنان فليسمع » (متى ١٣ : ٣٧ — ٤٣).

إن فكرة يسوع واضحة كل الوضوح : فهو لم يأت ليبطل الظلم على الأرض ؛ فالزؤان لن يبرح ينمو وسط الزرع الجيد . وما جاء ليقوم بعمل ينجح نجاحاً بشرياً ؛ ولا جاء يمنع الحروب ، والرق واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان . إنما جاء يدعو إلى الملكوت من يريدون أن يستمعوا له . والملكوت ليس من هذا العالم .

* * *

« يا أبتاه ، لقد أتت الساعة ، فمجد ابنك . . . فلقد قلدته السلطان على كل بشر . . . » (يو ١٧ : ١ — ٢) .

قال يسوع هذه الكلمات ، عيشة الآلام ، فالتمجيد سيبدأ بالإذلال ، والنكال ، والموت . إذلال ، ونكال ، وموت : أحوال ثلاث هي في نظرنا منتهى الشر ، ينبغي تجنبها بكل الوسائل . فيقضي الإنسان عمره ، محاولاً اتقاءها ، أما يسوع ، فلا يتقيها ، بل يتخيرها : وظل طوال حياته العامة ينبئ عن آلامه العتيدة ؛ وفي الإنجيل أكثر من عشرين نصاً تذكر بها . فهو يواجه العذاب والموت بنفس الاطمئنان التام الذي يواجه به أحداث الكون : « أنا الراعي الصالح ؛ أعرف خرافي ، وهي تعرفني كما أن الآب يعرفني ، وأنا أعرف الآب ؛ وأبذل حياتي عن خرافي . . . لا ينتزعها (حياتي) أحد مني ، وإنما أنا أبذلها باختياري . فلي سلطان أن أبذلها ،

ولى سلطان أن أسترجعها أيضاً » (يوحنا ١٠ : ١٤ ، ١٥ ، ١٨) .

يسوع يبذل حياته وله سلطان أن يسترجعها . يسترجعها ؛ بأن يقوم ، فهو حين ينبئ عن آلامه ينبئ عن قيامته : « وعاد فاعتزل بالاثنى عشر ، وطفق يقول لهم ما سيجرى له ، ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، وابن البشر سيسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة ، فيحكمون عليه بالموت ، ويدفعونه إلى الأمم ، فيهزءون به ، ويبصقون عليه ، ويجلدونه ، ويقتلونه ، ثم ينهض بعد ثلاثة أيام » (مرقس ١٠ : ٣٣ — ٣٤) .

« أما الرسل ، فلم يفهموا هذا الكلام ، وكانوا يهابون أن يسألوه » (مرقس ، ٩ ، ٣١) .

لم نفهم بعد .

* * *

قام يسوع من الموت وانتصر . وغلب الموت والخطيئة . ولكنه لم يقم لينتقم ، فى هذا العالم ، ممن زعموا دماره . وملك ، ولكن فى العالم الحر الآخر ، أما فى هذا العالم فقد انتهت رسالته بهزيمة الصليب .

ومرّ ألفا سنة ، ولمّا نفهم سر الصليب ، ولم نزل مصرّين ، نريد أن يعلن مجد القيامة بانتصار أرضى .

غير أننا ، عندما يخطر ذلك بالبال ، نشعر بأن يسوع يعارض هذه الشهوات الأرضية كل المعارضة ، ويريد من تلاميذه تخلياً قاطعاً ، لكى يثبت للملأ أجمع أن مملكته مملكة سماوية . . . ولكن ، كم من

المسيحيين يزعمون أن الحياة الحقيقية هى الحياة الأخرى ، وتقتضيهم فكرة الانتصار على هذه الأرض أن يعيشوا عيشة اتضاع واحتمال حتى يكللوا فى الآخرة فقط بمجد القديسين ؟

* * *

ومع ذلك ، فإن يسوع يشير إلى واقع دنيوى ، عندما يتكلم عن الملكوت ، فيشبّهه بحبة خردل ، وبخميرة ، ودرّة ثمينة ، ولا يقصد بذلك الحياة الأخرى ؛ وهكذا قوله : « ليس ملكوت السماوات هنا أو هناك ، إنما هو فى داخلكم » . فالملكوت موجود ، بنوع ما ، على الأرض فى نفوسنا ، وفى جماعة النفوس التى تتبع يسوع وتكوّن الكنيسة غير المنظورة . فهذه النفوس أشبه بمخطط للحياة الأبدية .

ولا ريب أن الحياة الإلهية هى عند من فهمها وذاقها ، حتى فى هذا العالم ، فوق كل سعادة بشرية ؛ ولكنها لا تعدو أن تكون زرعاً ، يقوم جمالها فى تصوّر ما تتفتح عنه يوماً من المجد ؛ كجمال البرعم الذى ننتظر أن يصبح زهرة .

« الآن ننظر فى مرآة ، فى إبهام ؛ أمّا حينئذ ، فوجهاً إلى وجه » (١ كو ١٣ : ١٢) .

ثم إن سعادة هذه الحياة الإلهية ، على الأرض ، هى غير ثابتة . فقد يمر تلميذ المسيح بمحن داخلية وخارجية . وتمرّ به ساعات لا يسنده فيها سوى إيمانه ، وقد تدوم تلك الساعات أسابيع وسنين . أمّا إذا فهم

تعليم الرب وحفظ دروس الصليب ، فلا يهمّه من ذلك شىء فانتصار المسيح هو الانتصار على الخطيئة ، وملكوت الله هو ملكوت السماوات .

ويختلف ملكوت الله ، كل الاختلاف ، عن ممالك هذا العالم . وأول التجارب وأغلظها التى يقع فيها أكثر البشر هى أن يحسبوا الملكوت ، برغم تحذير العلم، مملكة أرضية مادية ، مملكة برّ وقداسة منظورة ، وأن يطالبوا الكنيسة بأن تثبت رسالتها الإلهية بضمانها السعادة للناس ، بالعدل والسلام على الأرض .

هذا التصور الكثير الشيوع يناقض تعليم الرب الصريح كل المناقضة . ومن نجا منه ، سقط فى تجربة أخرى أدّق من الأولى ؛ وهى أن تتصور الملكوت مملكة نفوس (قديسة) لا تزال فى الدنيا ، وتحكم على المسيحية مما تقدمه لها من السعادة على الأرض ، وأنت تريد السعادة الروحية الداخلية لا الخارجية المادية ، ولكن السعادة الداخلية على الأرض هى سعادة بشرية . فتكون إلهية إن جاءت من الله ، ولكنها لا تزال أرضية لأنك تنعم بها على الأرض .

فهذا الضلال الثانى لا يناقض تعليم الرب مباشرة كالضلال الأول . لأنه معروف أن الحياة المسيحية تولى النفس فرحاً لا يوصف ، منذ هذه الحياة . فرسائل القديس بولس تفيض بهذا الفرح ، ولكن باتجاهه نحو الحياة الأبدية ؛ فالحياة المسيحية على الأرض لا يمكن اتخاذها كلاً

بذاتها ؛ وما هي إلا بداءة ، واستعداد ، وانتظار ؛ لكن الإنسان ، بانغماسه الشديد في الأرض ، يجعل الحياة الإلهية خيراً أرضياً .

لذلك ، تكون المحن الداخلية ألزم من الخارجية لمن يريد أن يفهم معنى الملكوت .

* * *

أيجب على المسيحي ، بعد هذا ، ألاّ يبالي بالعالم ؟ وماذا يبقى لنا أن نصنع في العالم ، إذا لم يبق لنا أن ننتظر على الأرض لا العدالة ولا السعادة ؟ أنترك العالم يسير إلى البوار والدمار ، ونعتزل الناس لكي نطهّر نفسنا ؟

سؤال يلقى دائماً ، وقد أجبنا عنه قبلا ، — ماذا بقي لنا أن نصنع في العالم ؟ — أن نمارس المحبة .

ما جاء يسوع ليقيم العدل على الأرض ، ولا دُعي تلميذه ليطلب العدل والسعادة لنفسه ، بل ليحتمل الأذى ، بلا شكوى ولتحمله المحبة على أن يطلب لغيره ما لا يطلبه لنفسه ، فيكون موقفه غير موقف الكثيرين ، ممن لا يذكرون العدل إلا إذا زعموا أنهم مظلومون . ويطلبون السعادة لأنفسهم ، دون اهتمام بالآخرين .

أمّا يسوع ، فقد اختار الموت في العذاب عمداً ؛ ولكنه شفى المرضى والزمنى . « طوبى للجياع والعطاش إلى البر » (متى ٥ : ٦) فليس المقصود فقط أن نطلب حقوقنا ونستريح بها ، بل المقصود العدل للجميع . والجميع هم الآخرون .

فتلميذ المسيح فى العالم منهل عدالة ، وسعادة ، وسلام .

إن يسوع ما جاء إلى العالم ليلاشى الحروب ، ويحلّ المشاكل الاجتماعية ؛ ولكن تقلّ الحروب ، وتهدأ المشاكل ، كلما ازداد عدد التلاميذ . وهكذا تكون الكنيسة مقدسة . يضىء نور قداستها على الجبل ، ويطرد الظلام . ولكن لا يتم ذلك إلا مع المقاومة ، لأن ما أتانا به يسوع فى بشارته السنية ليس سلاماً أرضياً ؛ وقد رأينا أن هذا السلام لا يتحقق بجملته ، لأن التلاميذ هم دائماً قليلون ومضطهدون ، ولكنهم يكونون دائماً خمير سعادة روحية وسعادة بشرية .

إن المسيحى الحقيقى ليطهّر الجوّ تلقائياً ، بقوة ما ينال من النعم الإلهية الغزيرة ، وبدون أن يفتكر فيها أو يعلم بها .

وكثيراً ما تكون هذه القوة العلامة التى يعرف بها المخلص كثير من غير المؤمنين .

* * *

إن تركيز الحياة فى العالم الثانى أمر تقاومه ، فى طبيعتنا البشرية ، نزعة قوية ، لأن الإنسان جسدى حسيّ يرى ، فى هذا العالم الذى يعرفه ويحيا فيه ، العالم الحقيقى ؛ أمّا الحياة الأبدية فهى عنده شىء غائم غامض .

هكذا ، كان اليهود يركزون حياتهم فى هذا العالم ، ولم يكن للعالم الآخر فى تفكيرهم إلا موضع ضئيل . فلم يتبع يسوع تقليدهم ، وبشّرهم

بملكوت السماوات ؛ فكان تعليمه يسوءهم . ولست أعرف ديانة أخرى غير المسيحية جرؤت ، وركزت قيمة الحياة كلها فى العالم الآخر .

لأنْ ما من ديانة فيها الوعى الحى لله الذى جاء به يسوع ، والذى وحده يقدر أن يأتى به ، لأنه الابن ؛ وما من ديانة تثبت لمؤسسها هذا الوعى للحقيقة الإلهية ، أو تتوهم كم يحبنا الله ، وكيف يريد أن يشركنا فى حياته .

لكن المسيحية تكلفنا ، مقابل تجاوزنا طبيعتنا ، أن نبذل جهداً لا تطلبه ديانة أخرى . وقلّ بين المسيحيين من يبذلون هذا الجهد .

فعلى حياتنا الداخلية يتوقف وعينا للملكوت . ولا يكفى أن نسلّم بالعقيدة ، أو أن نتعلم فى درس دينى أن الرؤيا السعيدة تفوق كل سعادة دنيوية ، بل ينبغى ، لتحقيق الحياة الفوقية أن نبدأ فنحياها ونهجس فيها ، كل حين .

ولن نبلغ إلى ذلك بسهولة ، لن نبلغ إلا إذا أتممنا ما يطلبه يسوع من تلاميذه ، من التخلّى . فالتخلّى والحياة الفوقية أمران متلازمان : فنحن إذا فتنتنا الأرض بما فيها ، كانت الحياة الأرضية حياتنا الحقيقية ؛ وإن لم نعش مفتكرين فى الملكوت ، حيث يملك المسيح ممجداً ، وحيث يعد لنا مقاماً ، فكيف نزهد فى الخيرات الحسية ؟

* * *

« إن يوم الرب يوافى كلص فى ليل » (١ تسالو ٥ : ٢) .

« كونوا مستعدين ، لأن ابن البشر يأتى فى ساعة لا تظنونها » (متى ٢٤ : ٤٤) .

« احذروا ؛ اسهروا وصلوا ، لأنكم لا تعلمون متى يحين الوقت . فمثل ذلك مثل إنسان سافر ، وترك بيته . . . وأوصى البواب بالسهر . فاسهروا إذن ، لأنكم لا تعلمون متى يجىء رب البيت ، فى المساء أم فى منتصف الليل ، أم عند صباح الديك ، أم فى الصباح . . . وما أقوله لكم أقوله للجميع ، اسهروا » (مرقس ١٣ : ٣٢ — ٣٧) .

فالحياة محنة ، وللمعلم وحده أن يحدد مداها . وليس المهم أن تكون الحياة طويلة أو قصيرة ؛ إنما المهم أن نكون ، عند مجىء الرب ، مستعدّين . فالناس يموتون فى جميع الأعمار . وليس بوسعنا أن نتجنب الموت ، بل بوسعنا أن نكون مستعدين . وليست المشكلة فى عدم الموت ، بل فى أن نموت ميتة صالحة . فالميتة الصالحة تتوقف على الحياة ، لأننا نموت كما نحيا .

إننا نموت فى كل عمر ، ويوافينا الموت كلص فى ليل ؛ وليس لنا أن نضرب له موعداً . فقد يفاجئ طفلاً ملء العين ، ويختطف عرساناً غداة زواجهم ، وشباناً فى أوج مجدهم ، على حين يعيش مجانين ، ثمانين ومائة من السنين . فليس يهمنا أن نموت آجلا أم عاجلا . فللمعلم أن يعيّن ساعة مجيئه ، إنما يهمنا أن نكون مستعدين .

جميل أن يموت الإنسان كريماً فى العشرين ؛ وقبيح به أن يبلغ

الثمانين ، وهو لا أدب ولا دين . فالحياة تؤدى إلى الأبدية ، وهذه لا تتوقف على عدد السنين ، بل على نوع الحياة .

فالتلميذ ينتظر معلمه ، متاجراً بوزنته ، وعينه ترقب الأبدية ، ملكوتَ السماوات ، ملكوت الله الأزلى ؛ — وهذا الملكوت هو فى التلميذ بواسطة الحياة الفوقية . لأن الحياة المسيحية هى بداية الأبدية فى النفس على الأرض ، تظهر بأعمال المحبة، ولا تنتهى بالموت ، بل تتمدد وتتفتح . « صورة هذا الزمان تزول » (١ كور ٧ : ٣١) أمّا حياتنا فلا تزول .

وهذا أيضًا ، قد قل بيننا من يحققه ، لما فى غريزتنا من التعلق الشديد بالحياة ، وقليلون بين البشر حتّى بين المسيحيين من يتسلطون على غرائزهم ، فالخوف من الموت أمر طبيعى ؛ أما انتظار المعلم فأمر فوق الطبيعة . ولذلك يقل بيننا من ينتظرون المعلم .

فتلاميذ يسوع قليلون فى هذا الأمر كما هم فى غيره .

إن حياة المسيحى هى حياة داخلية . فنحن ننتظر ، فى سر نفسنا ، مجىء ربنا ؛ ولسنا لننتظره إلا لأننا نفتكر فيه : فالخادم الذى يكنس عتبة البيت المهجور ، كل صباح ، لا يواصل كنسها إلا لافتكاره فى سيده كل صباح، « فقد يمكن أن يجىء المعلم فى هذا النهار » .

يجب الافتكار فيه .

خاتمة

لقد مرت أجيال وأجيال على مجيء المسيح إلى العالم ، وكتبت عنه وعن تعليمه ألوف من المجلدات . لكن لا يزال من يقبلون تعليمه قليلين .

وتحمل الكنيسة تعليمه إلى أقاصي الأرض ، ويظل البشر كما جاء فى مثل الزارع : يسقط كثير من الحب على أرض حجرة فينبت ، وإذ لا يكون له تراب كثير ، فييبس .

وهم ، دائماً ، كمثل الزرع الجيد والزؤان ؛ يكتبون ألوفاً من الكتب عن يسوع ، ولكن أكثرها يشوه صورته : فيتبعه الناس كما كانت الجماهير تتبعه قديماً ليشاهدوا أعجوبة ، أو لينالوا مأرباً . يتاجرون به كما صنع أحدهم وقد تجاسر فنشر سلسلة من القصص التافهة الزرية بعنوان (المسيح فى الدكان) . فيصير الدين تجارة لربح المال ، وسياسة لانتصار الأحزاب . حتى لتبلغ الحال بكثير من المخلصين ألا يروا المسيح ولا يعرفوا تعليمه فى من يدعون أنهم تلاميذه .

وهم اليوم كما كانوا من قبل فى وليمة الفريسى وفى جميع الأمثال الإنجيلية .

نظن أحياناً أن الكنيسة قد حددت كل ما يجب أن نؤمن به ،

وما يجب أن نعمله ، بحيث لا تبقى أية مشكلة يمكن أن تواجه المسيحى الصحيح . ولكن الغرض من تعليم الكنيسة أن تسمعنا نداء يسوع الذى يدعونا شخصياً ، فرداً فرداً . ومشكلة حياتنا هى أن نعرف كيف يجب أن نكون مع يسوع .

وإذا كان تعليم الكنيسة يقدم لنا من الاطمئنان إلى العقيدة ما لم يكن يقدمه ، بهذا المقدار ، للمسيحيين الأولين ، فإن التربية التقليدية فى بعض البيئات المسيحية قد تعرّض النفوس إلى طمأنينة كاذبة ؛ فيظنون أنهم يقدرون أن يتكلوا على بعض الرسوم والالتزامات ، وبعض العبادات ، فينسوا أن المسيحى هو تلميذ الرب يتبعه ، ويحبه ، ويثق به ثقة لا حد لها ، وأن مسيحيتنا إنما تقوم بهذا الارتباط الشخصى بالمسيح يسوع .

هذه الأفكار المسيحية الأساسية أى التعلق الشخصى بالمعلم ، والانطراح بين يديه ، والأهمية العظمى لملكوت السماوات ، والحب الفائق للآب ، هى ، ولا شك ، أقل ما يعرفه أكثر المسيحيين . أمّا الذين يعرفون هذه الأمور ، ويقدرون ما تستحق من المكانة فى حياتنا ، فإنهم يفهمون سريعاً أنها تقتضى منا رجوعاً عميقاً إلى ذاتنا ، فنجعلها شغلنا الدائمُ ، دون أن نبلغ أبداً إلى منتهاها .

إن طريق الملكوت قد يكون مزروعاً بعلامات واضحة ؛ ولكن علينا نحن أن نسير فيه ، مراقبين المعلم قائدنا فيه ، فنقتفى أثره ، ونصحبه ، ونستمع إلى صوته ، ونعتمد عليه ، وندعه ينفذ إلى صميم كياننا ، حتى

يتلاشى إنساننا القديم ، شيئاً فشيئاً ، وتمّحى شخصيتنا اللحمية الشهوانية ولا يبقى فيها إلاّ هو .

* * *

وهذا الكتاب ، يجب أن يقال عنه فى ختامه ما قال القديس يوحنا فى ختام إنجيله : « وصنع يسوع أيضًا أشياء أخرى كثيرة ؛ فلو أنها كتبت واحداً فواحداً ، لما خلبت العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة » .

والأناجيل ليست سوى كتيبات . وهذا الكتاب لا يقدّم للقارئ غير جزء يسير مما تحتوى عليه الأناجيل ؛ فقد حاول أن يستخلص منها بعض أسطر مهمة لفائدة أهل العصر ولتجديد الروح عند من يُخشى عليهم ، من التقليد ، أن يخنق الحياة الإلهية فيهم .

الحياة هى حياة يسوع . ولن نكون مسيحيين ما لم نفهم أن إيماننا المسيحى هو حياة ، ومعاشرة إنسان لإنسان ، معاشرة الإنسان الخليقة الضئيلة للإنسان الإله ، فإن بيننا وبينه لعهداً .

فهرست

	الصفحة
تمهيد	٥
الملكوت	٩
طوبى للنقية قلوبهم	٢٣
حب الآب	٣٦
المسيحى أمام العالم	٤٩
من أراد أن يكون لى تلميذاً	٥٣
الحياة الداخلية	٧١
المسيحى فى العالم	٧٦
الزواج المسيحى	٨٨
الوعد الإلهى	٩٩
رحمة الآب	١٠٣
انتصار المسيح	١٠٩
خاتمة	١٢٣

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

منشورات المعهد

المعادى

قائمة الكتب التى صدرت فى هذه المجموعة

١ — درب القداسة — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٢ — الحياة الكاثوليكية فى عالمنا الحاضر — تعريب : الأستاذ بطرس كساب

٣ — التجسد — تعريب : الأب لويس أبادير

٤ — القديس باسيليوس — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٥ — القديس غريغوريوس النزينزى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٦ — القديس أثناسيوس — تعريب : الأب أنطون نحال

٧ — القديس قبريانوس الإفريقى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٨ — الكنيسة أمام المشاكل الاجتماعية — تعريب : الأستاذ أنطون مطر

٩ — القديس يوحنا الذهبى الفم — تعريب : الأب رفائيل نخلة اليسوعى

١٠ — دعوة المسيحى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى